

مذكرات

في

تاريخ آداب اللغة العربية

لطلبة السنة الرابعة من القسم الأول

من مدرسة القضاء الشرعي

على وفق المقرر عليها من أملاء الاستاذ (الشيخ محمد المهدى)

١٩١٨ — ١٩١٩ م

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر



حال اللغة العربية

من ابتداء القرن الثانى الهجرى الى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ

انتشار اللغة العربية — كان العرب أسرع الامم الفاتحة فى نشر لغتهم لأسباب جمة : السبب الاول . أن لغتهم لغة دين وقد كان الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ويريدون على أثر الدخول أن يعرفوا أحكام الله فكانوا يسارعون الى تعلم لغة العرب بالمشافهة والتعليم وقد وضع الامام على كرم الله وجهه قواعد للغتهم وأخذ المعلمون منهم كأبى الاسود وأضرابه وتلاميذهم يعلمون الناس فى الامصار : السبب الثانى . عنايتهم باكثار المتعربين وإدماجهم فيهم بالمصاهرة ووحدة اللسان العربى حتى لا تتشربهم الامم ويضيع جنسهم فيها وقد ظهرت هذه العناية أتم الظهور فى الاندلس

السبب الثالث . كثرة الرحلة الى الجهات القاصية للجهاد والمرابطة ولهذا دخل الاندلس (وهو أقصى ما وصل اليه المسلمون فى فتوحهم الغربى) عدد من التابعين لا يريدون إلا أن يكونوا مجاهدين أو مرابطين كمحمد بن أوس بن ثابت الانصارى الراوى عن أبى هريرة وفضالة بن عبيد الراوى عن عبد الله بن عمر ويزيد بن قاسط المصرى الراوى عن عبد الله بن عمرو بن

العاص وموسى بن نصير الذى ينسب الفتح اليه : السبب الرابع . كثرة الخيرات فى البلاد المفتوحة هذا وقد سارت اللغة سيرا حثيثا فى كل الاقطار التى دخلها الاسلام وحلت محل لغات كثيرة وعربت أمما عدة وكان السلطان العربى يزيدها انتشارا وثباتا وقد بلغت أوج عزها فى عهد الدولة العربيـة البحتة وهى دولة بنى أمية فقد كان أسلوبها أصح الاساليب وبيانها أجلى بيان وقد كانت لغة لسان وعلم ودام ذلك الى أن كثر الخلطاء من الشعوب المنافسة للعرب فى الملك أيام قيام الدعاة الى المذاهب الدينية والسياسـية فى أواخر بنى أميـة

وقد ظهرت للغة العربية من ذلك العهد أطوار جديدة فى التخاطب بها وفى نثرها ونظمها وكتابتها وخطابتها

أما التخاطب بها فقد أخذ يتغير بالتدريج الى أن فارقت لغة العلم لغة اللسان وذلك لكثرة المخالطين من الفرس والترك والروم وغيرهم بالمصاهرة والمناصب والاعمال فكان الناشئ يسمع فى العبارة عن المقاصد أساليب غير التى كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده ويسمع أساليب العرب أيضا فيختلط عليه الامر فيأخذ من هذه ومن تلك فتستجد له ملكة ناقصة عن الاولى ثم تتناقص فى الجيل الذى بعده وهكذا الى أن تصير بالعجمة أشبه ومن هنا جاء فساد السليقة للعرب الخلّص . ولقـد كانوا يسمعون اللحن فيتألمون ولا يجدون السبيل الى مقاومة تيـاره الجارف لاشتداد الحاجة الى مخالطة

الاعاجم ولقلة الوسائل الى التعليم العام فى ممالكهم الواسعة وقد كانوا يرسلون بأولادهم الى البادية ليسمعوا من أهلها العربية الصحيحة كما صنع معاوية بابنه يزيد ولكن ذلك كان فى أفراد قليلين فلم يكن صادا لفشو اللحن حتى فى ألسنة العرب أنفسهم فقد قال الحجاج للشعبى يوما كم عطاءك فقال ألفين فقال الحجاج كم عطاؤك فقال ألفان قال كيف لحنت أولا فقال لحن الامير فلحنت فلما أعرب أعربت وهذا عبد الملك بن مروان يقول شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . وقد كان ظهور الفساد بادئ بدء فى الامصار والمدن ثم سرى الى القرى والضياع ثم الى البدو بعد زمن غير قصير لكثرة ابتعادهم عن الاعاجم وقلة مصاهرتهم هذا

وأما كتابتها فقد حفظت من اللحن بالعلوم التى وضعتها العرب للغة وقد كان كتابهم من أمهر البارعين فيها على أن الكتابة لا تصدر إلا بعد تمحيص وترو ولا كذلك الكلام فى أكثر أحواله وقد حافظ المسلمون على لغة الكتابة فبقيت صحيحة على الجملة حتى اليوم

النثر — النثر كل كلام ألقيته متفرقا غير موزون بزنة ولا مقيد بقافية ومنه المرسل والمسجع وأكثره ورودا واستعمالا المرسل لانه أيسر . وقد كان النثر فى بنى أمية فطريا معربا عن المقصود بأيسر عبارة سليما فى جملته من الالفاظ الدخيلة والاصطلاحية بعيدا عن التكلف والصناعة ودام ذلك الى عهد عبد الحميد الكاتب فى آخر الدولة الاموية

فلما جاء عبد الحميد وأضرابه ظهر للنثر طور جديد هو طور الصناعة والتعسف وإطالة الديباجة والدعاء في صدور الكتب والرسائل وكثرة الترادف وقد سرى اليهم هذا من الفرس ولم يزل حال النثر كذلك الى عصر أبي الفضل محمد بن الحسين المشهور بابن العميد . ولامتياز الكتابة بالصنعة الجيدة في هذه الطبقة قال كثير من الكتاب بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومن كتاب هـذه الطبقة المجيدين ابن المقفع وعمرو بن مسعدة وابرهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب والجاحظ وعبد الله بن طاهر والفتح بن خاقان وابن المعتز ثم جاء بعد هؤلاء طبقة أخرى من الكتاب جعلوا للنثر طورا جديدا هو طور السجع والبديع والخيالات وقد تجلى هذا الطور من عهد ابرهيم بن هلال الصابي الى عهد العماد كاتب صلاح الدين الايوبي ومن كتاب هذه الطبقة أبو بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني وأبو الفتح البستي وأبو الفضل الميكالي والحريري والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني . فأما الذين جاءوا بعد هؤلاء فقد كان لهم طور التعقيد والخروج عن الحد في الصناعة اللفظية وهذا الطور قد طالت مدته بعد انقراض الدولة العباسية من بغداد ثم من مصر

وما زالت الكتابة تسخف وتثقل حتى ملتها الطبائع وطلبت سواها ولم تخلص منها الا في العهد الاخير ومن أحسن كتاب هذه الطبقة ابن خلدون

تنبيه — لا ينبغي أن يفهم من هـذا التقسيم أن النثر في كل طبقة من

هذه الطبقات يكون على حالة واحدة من حيث الصحة والفصاحة والبلاغة والجزالة فانا نجد فى عصرنا من يكتب وكأنه نشأ فى صميم العرب ومنهم من يكتب وينظم وليس له من نثره ونظمه إلا صورة الاسطر مكتوبة من اليمين الى اليسار وانما ننعت الطبقة بالصفة الذائعة فيها

أمثلة مختلفة من النثر فى هذه العصور

من أوجز ما كتبه عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية كتابه فى العناية ببعض الاشخاص وهو

حق موصل كتابى عليك كحقه على اذ جعلك موضعا لامله ورآنى أهلا لحاجته وقد انجزت حاجته فصدق أمله

ومن أوجز ما كتب يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى مروان بن محمد وقد تلكأ فى بيعته بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد الى مروان بن محمد أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت والسلام

ومن نثر عبد الله بن المقفع فى كتابه الدرة اليتيمة . لا تجالس أحدا بغير طريقته فانك ان أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافى بالفقه والعي بالبيان لم ترد على أن تضيع عقلك وتؤذى جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمك اياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الاعجمى الذى لا يفقه . واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عادوه ونصبوا له ونقضوه

عليك وحرصوا على أن يجعلوه جهلا حتى أن كثيرا من اللهو واللعب الذى هو أخف الاشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به

(ومما كتبه الصاحب ابن عباد فى استزاره

مجلسنا يا سيدى مفتقر اليك معول فى اغنائه عليك قد أبت راحه أن تصفو إلا أن تتناولها يمناك وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذناك فأما خدود نارنجه فقد احمرت خجلا لابطائك وأما عيون نرجسه فقد حدقت تأميلا للقائك فبحياتى عليك لمّا تعجلت لئلا يخبث من يومى ما طاب ويعود من همى ما طار)

x ومما كتبه عمرو بن مسعدة الى عبد الله المأمون الخليفة العباسى السابع يستعطفه . بسم الله الرحمن الرحيم كتابى الى أمير المؤمنين ومن قبلى من أجناده وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم

وقد قال المأمون بعد أن قرأ هذا الكتاب سمعت الرشيد يقول البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام ودلالة القليل على الكثير فلم أتوهم أن الكلام يرد على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب والله لأقضين حق صاحبه وأمر للجند باعطاء ثمانية أشهر

ومن أوجز ما كتب ابرهيم بن العباس الصولى بسر من رأى عن لسان الخليفة الى بعض الخارجين يتهدده أما بعد فان لامير المؤمنين أناة

فان لم تغن عقب بعدها وعيدا فان لم يغن أغنت عزائمه والسلام

وكتب الحسن بن وهب فى التوصية

كتابى اليك خططته بيمينى وفرغت له ذهنى فما ظنك بحاجة هذا موقعها منى أترانى أقبل العذر فيها أو أقصر فى الشكر عليها وابن أبى الشيص قد عرفته ونسبه وصفاته ولو كانت أيدينا تنبسط ببره ما عدانا الى غيرنا فاكتف بهذا منا

ومن كتب الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الوزير يستعطفه

بسم الله الرحمن الرحيم أعاذك الله من سوء الغضب وعصمك من سرف الهوى وصرف ما أعارك من القوة الى حب الانصاف ورجح فى قلبك ايثار الاناة فقد خفت أيدك الله أن أكون عندك من المنسوبين الى نزق السفهاء ومجانبة سبل الحكماء وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت

وان امرأ أمسى وأصبح سالما　　من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه　　ذموه بالحق وبالباطل

فان كنت اجترأت عليك أصلحك الله فلم أجترئ إلا لان دوام تغافلك عنى شبيه بالاهمال الذى يورث الاغفال والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ولذلك قال عيينة بن حصين بن حذيفة لعثمان رحمه الله عمر كان خيرا لى منك

أرهبنى فأتقانى وأعطانى فأغنانى فان كنت لا تهب عقابى أيدك الله لخدمة فهبه لاياديك عندى فان النعمة تشفع فى النقمة وألا تفعل ذلك لذلك فعد الى حسن العادة وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد وتتجافى عن عقاب المصر حتى اذا صرت الى من هفوته ذكر وذنبه نسيان ومن لا يعرف الشكر إلا لك والانعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة وأعلم أيدك الله أن شين غضبك علىّ كزين صفحك عنى وان موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك وأعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام

وقال يصف اللسان : اللسان أداة يظهر بها حسن البيان وشاهد ينبئك عن غائب وناطق يرد الجواب وحاكم يفصل الخطاب وشافع تدرك به الحاجة وواصف تعرف به الحقائق وواعظ ينهى عن القبيح وبشير ينفى الحزن ومؤنس يذهب بالوحشة ومعتذر يدفع الضغينة وزارع ينبت المودة وحاصد يستأصل العداوة وشاكر يستوجب المزيد ومادح يستحق الزلفى

وكتب ابن الرومى فى التنصل والاعتذار : ترفع عن ظلمى ان كنت بريئا وتفضل بالعفو ان كنت مسيئا فوالله انى لأطلب عفو ذنب لم أجنه وألتمس الاقالة مما لا أعرفه لتزداد تطولا وأزداد تذللا وأنا أعيذ حالى عندك

بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك

وللصاحب فى التهنئة ببنت : أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الاصهار والاولاد الاطهار المبشرة باخوة يتناسقون نجباء يتلاحقون

فلو كان النساء كمثل هذى   لفضلت النساء على الرجال

وما التانيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

فادرع يا سيدى اغتباطا واستأنف نشاطا فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها والارض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب والنفس مؤنثة وبها قوام الابدان وملاك الحيوان والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الاجسام ولا عرف الانام والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ولها بعث الرسل فهنيئا هنيئا ما أوليت وأوزعك الله شكر ما أعطيت وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد وما بقى الأمد وكما عمر لبد

ولأبى الفضل احمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى فى الشوق :

أرانى أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أو هبت الريح أو نجم النجم أو لمع البرق أو عرض الغيث أو ذكر الليث أو ضحك الروض ان للشمس محياه وللريح رياه وللنجم حلاه وعلاه وللبرق سناءه وسناه وللغيث نداءه

ونداه وفى كل صالحة ذكراه وفى كل حادثة أراه فكيف أنساه وا شـدة شوقاه عسى الله أن يجمعنى وإياه

✗ ومن رسائله يعزى بعض اخوانه عن أبيه ويحذره التبذير والتقتير :

وصلت رقعتك يا سيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر والعزاء عن الأعزة رشد كأنه الغى وقد مات الميت فليحى الحى فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم غيرك بالامس قد كان ذلك الشيخ وكيلك تضحك ويبكى لك وقد مولاك بما ألف بين سراه وسيره وخلفك فقيرا الى الله غنيا عن غيره وسيعجم الشيطان عودك فان استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أتلف بين الاقداح والقداح ولولا الاستعمال لما أريد المال فان أطعتهم فاليوم فى الشراب وغدا فى الخراب واليوم وا طربا للكاس وغدا وا حربا للافلاس . يا مولاى ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ويسميه العاقل فقرا وذلك الخارج من الناى هو اليوم فى الآذان زمر وغدا فى الابواب سمر والعمر مع هذه الآلات ساعه والقنطار فى هذا العمل بضاعه وان لم يجد الشيطان مغمزا فى عودك من هذا الوجه رماك بقوم يمثلون الفقر حذاء عينيك فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتنافس عرسك وتمنع نفسك وتبوء فى دنياك بوزرك وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك . لا ولكن قصدا بين الطريقين وميلا عن الفريقين لا منع ولا إسراف والبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل المرء خيفة ما فيـه فليكن لله فى مالك

قسط وللمروءة قسم فصل الرحم ما استطعت وقدر اذا قطعت فلأن تكون في جانب التقدير خير لك من أن تكون في جانب التبذير

وكتب أبو بكر الخوارزمي الى أحد أصدقائه وقد بلغه أن بيته هدم فقال :

بلغني ذكر الهدة فالحمد لله الذي هدم الدار ولم يهدم المقدار وثلم المال ولم يثلم الجمال وسلط الحوادث على الخشب والنشب ولم يسلطها على العرض والحسب ولا على الدين والادب ولا بد للنعمة من عوذة ولا بد لعين الكمال من رقية ولأن يكون في دار تبنى ومال يجبر ويثمر خير من أن يكون في النفس التي لا جبار لكسرها ولا نهاية لقدرها

وكتب الى صديق له ورد عليه كتابه بأنه عليل :

وصل كتابك يا سيدي فسرني نظري اليه ثم غمني اطلاعي عليه لما تضمنه من ذكر علتك جعل الله تعالى أولها كفارة وآخرها عافية ولا أعدمك على الأولى أجرا وعلى الآخرة شكرا وودي لو قرب علي متناول عيادتك فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك فلقد خصني من هذا العلة قسم كقسمك ومرض قلبي لمرض جسمك وأظن أني لو لقيتك عليلا لانصرفت عنك وأنا أعل منك فاني بحمد الله جلد على أوجاع أعضائي غير جلد على أوجاع أصدقائي شفاك الله وعافاك وكفاني فيك المحذور وكفاك وغفر ذنبك وشرح قلبك

وكتب أبو الفضل الميكالى (هو الامير عبد الرحمن بن احمد من نسل ملوك فارس) المتوفى بخراسان سنة ٤٣٦ هـ تعزية عن محدث الى أخيه :

لقد عاش أخوك نبيه الذكر جليل القدر عبق الثناء والنشر يتجمل به أهل بلده ويتباهى بمكانه ذوو مودته حتى اذا تسنم ذروة الفضائل والمناقب وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب اختطفته يد المقدار ومحت أثره بين الآثار فالفضل خاشع الطرف لفقده والكرم خالى الربع من بعده والحديث يندب حافظه ودارسه وحسن العهد يبكى كافله وحارسه

ومن انشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى قوله فى آل أيوب :

وقد كان يقال أن الذهب الابريز لا تدخل عليه آفة وأن يد الدهر البخيلة به كافة وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الاموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الابطال فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم وأيام دولتكم أعراس وما تم فيها إلا على الاموال ماتم والجود فى أيديكم خاتم ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم

هذا والقاضى الفاضل من المشهورين بالنثر الشعرى وقد كان أعلى شئ فى زمانه وقد كان يغلو فيه الى حد يخرج عن الحد . فمن ذلك قوله فى آخر جواب خطاب :

وان أدعى سحر البيان أنه يقضى أيسر حقوقه ويثمر ما يجب من شكر فروعه وعروقه كنت أفضح باطل سحره وأذيقه وبال أمره وأصلب الخواطر

الحارة على جذوع الاقلام وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الألسنة عن الكلام . وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ

ومن أشهر معاصريه وأعلاهم كعبا فى هذا الباب عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد القرشى الاصفهانى كاتب صلاح الدين الايوبى وصاحب كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى وقد تحرى فى كتابه هذا هذه الطريقة وزادها بحسن اختياره للكلمات طلاوة فى ذوق عصره كما قال فى طالعته بعد التحميد :

هذا كتاب أسهمت فيه بين الادباء الذين يتطلعون الى الغرر المتجلية وبين المستخبرين الذين يستشرفون الى السير المتحلية يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها :

ويمتاز نثر عماد الدين بأمور . منها حسن استعمال الصفات وتخير الالفاظ الخاصة الداخلة فى المعنى العلم . مثال ذلك قوله فى وصف القتلى فى حرب طبرية :

وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمآزق مفصلة المفاصل مفرقة المرافق مفلقة المفارق محذوفة الرقاب مفصومة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجدوعة الآناف منزوعة الاطراف معضاة الاعضاء مجزأة الاجزاء مفقوءة العيون مبعوجة البطون مخضوبة الضفائر معضوبة المرائر مبرية البنان مفرية اللبان مقصومة الاضالع مفصومة

الاشاجع مرضوخة الصدور مفضوضة النحور منصفة الاجساد مقصفة الاعضاد مقلصة الشفاه . الى أن يقول : سائلة الاحداق مائلة الاعناق مفتوتة الافلاذ مبتوتة الانخاذ مشدوخة الهامات مسلوخة اللبات عديمة الارواح هشيمة الاشباح كالاحجار بين الاحجار عبرة لأُولى الابصار

ومنها شغفه بتقصير السجعات حتى تصير كلمات متشابهات فى عدد الحروف ورنة الصوت كأنها قيست بمقياس الموسيقار الماهر كقوله فى وصف نساء الفرنجة :

من كل . . . حمراء مرحاء نجلاء كحلاء عجزاء هيفاء غناء لفاء زرقاء ورقاء الخ

ومنها شغفه بالجناس القريب الخطور بالبال والبديع السهل المتناول ولهذا جاء أكثره متقبلا ولا كذلك غيره من معاصريه مثل قوله فى فتح صيداء

وسرنا وسرنا مرتاح ونصرنا متاح والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم والحكم حتم ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهوى تفوح

ومنها (وهو مما عيب على الكتاب بعد الجاحظ) كثرة الترادف لغير حاجة حق البيان إلا التفنن فى العبارات وإظهار القدرة على البديع وهو فى هذا أقل عيبا من غيره لأن فى رشاقة عبارته وخفة لفظه وحسن اختياره للناصع منها ما يسهل على القارئ ما يثقل من غيره كقوله فى بعض الحاميات :

قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون ويرمون ويدمون ويحمون ويخمون ويحتدون ويحتدمون ويضطربون ويصطرمون ويذودون ويذبون

ويشبون ويسبون . الى أن يقول : ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون الخ

ومنها أن وصفه مجل للحقيقة فى أكثر الاحايين ولولا ما يزيد فيه من الخيال والصنعة لكان غاية الغايات مثل قوله فى ملحمة :

فلم يسمع إلا أنين الحنية كحنين المنية ورنين الاوتار من كنين الاوتار وهفيف السهام لذفيف اللهام وصليل بنات الغمود من غليل أبناء الحقود وهمهمة الابطال وغمغمة الاقتال وزئير الضرغام وزفير الضرام وقرع الظبا بالظبا ووقوع الشبا على الشبا وضجة الحديد من الحديد وعجة الشديد من الشديد الخ

ويقرب من إنشاء العماد إنشاء الصدر عز الدين بن سينا . فمن ذلك ما أنشأه فى بشارة بكسر أعداء الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٢ هـ :

فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ولا غمامة إلا نقع ولا وبل إلا سهام ولا مدامة إلا دم ولا نغم إلا صليل ولا معربد إلا قاتل ولا سكران إلا قتيل حتى أنبت كافور الرمال شقيقا واستحال بلور الحصباء عقيقا وازدحمت الجنائث فى الفضاء فجعلته مضيقا وضرب النقع فى السماء طريقا

وضاقت الأرض حتى كاد هاربهم   اذا رأى غير شئ ظنه رجلا

أما القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك والقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضى الفاضل فان نثرهما ونثر من اتبعهما متكلف قد أثقل بالتضمين والاقتباس والتوجيه وضروب من البديع لا يستدعيها طبع

عربى ولا يتطلبها ذوق متذوق وقد وصل بعضهم الى حد صارت الكتابة به أفكوهة باردة لا مضحكة ولا مفيدة بل هى أشبه بالتلاعب والعبث منها بالجد والافادة

فمن ذلك ما كتبه القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى شفاعة وهو :

أدام الله نعمة مولانا ولا زال علم علمه مرفوعا أبدا وبناء مجده منصوبا بخفض العدا ولا برحت أقلامه لافعال الشك جازمه ولاعدائه متعديه ولآرائه لازمه أما بعد فان فلانا حضر وادعى أنه رخم فى غير النداء وجزم والجزم لا يدخل فى الاسماء واستثنى من غير موجب نخفض والخفض من أدوات الاستثناء وذكر أن العامل الذى دخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء واجتمع معه فى الشرط وأفرده بالجزاء والمأثور من كرم مولانا نصب محله على المدح لا على الاغراء ورفع اسمه المعرى من العوامل على الابتداء فقيه من التمييز والظرف ما يحمل على العطف ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف لا زال مولانا بابا للعطف والصله وما آثر مكارمه متصله لا منفصله

هؤلاء من الكتاب الشعريين الغالين وقد كان فى كل عصر طبقة أخرى لا تحب أن تبتعد عن الحقيقة وهذه هى التى غلب عليها الجد والعلم كالقلصى موفق الدين عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر أحد أعلام المدرسين فى الازهر المعمور صاحب كتاب الافادة والاعتبار المتوفى ببغداد

سنة ٦٢٩ هـ فان كتابته بقيت قريبة من كتابة الصدر الاول من عهد بنى العباس كقوله فى وصية :

إياك والغلظة فى الخطاب والجفاء فى المناظرة فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعدم حلاوته ويجلب الضغائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلا سكوته أشهى الى السامع من كلامه ويثير النفوس على معاندته ويبسط الالسن بمخاشنته وإذهاب حرمته

ضروب الكتابة — لسنا نريد بضروب الكتابة أساليبها المختلفة التى تكون للكتاب كأسلوب المحدث أو الفيلسوف أو الطبيب أو الاديب أو الفقيه الى غير ذلك ولا أساليب الكتاب فى النوع الواحد كرواة الاخبار والمترسلين كما نرى الآن فى أساليب جرائدنا ومجلاتنا وأذواق كتابنا وطرائقهم فان ذلك يطول ولا ينضبط . وانما نريد الاجناس العامة وهى كتابة الدواوين وكتابة التصنيف وكتابة الترجمة وكتابة الاخوان وكتابة القصص

كتابة الدواوين وعصورها

ان ديوان الانشاء بدئ به فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لا بهذا العنوان بل بعنوان الكتبة الذين كانوا يكتبون الصدقات والاموال وخرص التمر وانهم أخذوا يكثرون على مقتضى الدواعى فى عهد الخلفاء الراشدين خصوصا أيام عمر حينما دون الدواوين ثم كثروا فى عهد بنى أمية بعد تحويل الدواوين

كلها الى العربية سنة ٨٧ هـ فى مصر والشام والعراق

وأكب الكتاب الذين كانوا يعرفون اللغة الرومية أو الفارسيه أو اليونانية أو السريانية على تعلم اللغة العربية حتى ينالوا فى هذه الدواوين أعمالا كسالم مولى هشام بن عبد الملك الذى نظم ديوان الرسائل فى أيام مولاه وتخرج على يده عبد الحميد الكاتب الذى انتهت اليه رياسة الكتاب فى عهده ونشأ طبقة بعده على طريقته كالقاسم بن صبيح وعمارة بن حمزه ويحي بن زياد وأبى عبيد الله وزير المهدى ويعقوب بن داود وزيره أيضا

العصر الاول — قد اتسع نطاق الدواوين فى عهد الدولة العباسية وتنوعت أغراضها وكثر ضبطها لاستقرار الامر بعد الحروب والتفرغ الى عمارة الارض وجباية المال واستصلاح الشؤون وبعث نتائج القرائح والنظر فى مظالم الناس واتساع السفارة بين الخلفاء والملوك الآخرين وما شاكل ذلك

وقد كان المظهر الاكبر فى الدواوين لديوان الرسائل فانه هو الذى تصدر عنه آثار الخليفة بين رعيته وعند الملوك والامراء الخارجين عنه وهو الذى يتولى كتابة العهود والمنشورات والعزل والتولية ولرئيسه سلطان كبير وتدبير مقبول عند الخليفة وهو أشبه الآن برئيس الوزراء فى مصطلح الحكومات اليوم وقد كان الخليفة يكل اليه تدبير الشؤون وتصريف الحوادث فلا يعرضها عليه إلا تامة محسوبة العاقبة وربما كتب له التوقيع الذى يوقعه ولا يبقى له إلا الاسم أو الختم. ولهذا قال بشار فى يعقوب

ابن داود وزير المهدى :

بنى أميـة هبوا طال نومكم   ان الخليفة يعقوب بن داود

فأما كتاب الحساب والعسكر والجباية وصرف الاموال وخرص الغلة والمبانى والاعمال العامة ومن على شاكلتهم فلم يكن لهم نباهة وكانت أعمالهم محدودة وقلما عنى التاريخ بذكرهم والتنويه بأقدارهم إلا اذا ظهروا بشئ آخر غير هذه الاعمال لانها تشبه أعمال الصناع ومن الذى يعنى بتاريخ كل صانع يعمل عملا متشابها دائما

وأظهر كتاب الرسائل فى هـذا العصر هم أولا الخليفة أبو جعفر المنصور ثم أبو عبيد الله ويعقوب بن داود ثم يحيى بن خالد بن برمك وولداه الفضل وجعفر . والبرامكة هم الذين نظموا الدواوين وأحكموا أعمالها وزادوا فيها فقد كانت الدواوين فى أيامهم أكثر من اثنى عشر ديوانا منهـا ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان الخراج والنفقات وديوان الجيش وديوان المعادن وديوان الرسائل وهو قسمان ديوان الخاتم وديوان التوقيع ثم ديوان المظالم والشرطة وديوان البريد وديوان الضياع والاقطاعات وديوان الخواص

ومن أظهرهم بعد هؤلاء أبو دلف والفتح بن خاقان وآل طاهر خصوصا طاهر بن الحسين ولو لم يكن من آثاره إلا كتابه لولده عبد الله لما ولاه ديار ربيعة لكفى فانه أوعى كتاب رأيناه فى هذا العصر وهو أجمع شئ فى السياسة وتدبير الملك واصلاح حال الرعية فى دينها ودنياها وهو يشبه فى

جملته عهد الامام على رضى الله عنـه للاشتر النخعى حينما ولاه مصر وهو عبارة عن دستور عام لجميع الاعمال مثل قوله فى الوصاية بالمرضى

وانصب لمرضى المسلمين دورا توقيهم وقواما يرفقونهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال الخ

وقد تنازع الناس هذا العهد وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه وقال ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم فيه وأمر أن يكتب بهذا العهد الى جميع العمال ونواحى الاعمال

ومنهم احمد بن يوسف كاتب البرامكة وقد تولى ديوان الرسائل أيام المأمون وكان يحتذى طريقة عبد الحميد وله رسائل مطولة أشهرها رسالة الخميس التى كانت تقرأ على الجيوش . ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وقد كان من فحول الكتاب والشعراء والادباء واللغويين

العصر الثانى — قد انصرف الناس فى هذا العصر الى الاشتغال بالعلم والتأليف واشتغل قوم بالرسائل على مقدار الحاجة وقد صغرت قيم كتاب الدواوين وعلت منزلة العلماء والادباء

ولذلك كان النابغون فى هذا العصر هم الادباء المؤلفون وأعلاهم الجاحظ فانه كاتب مؤلف أديب صاحب طريقة فى الكتابة مقلدة

وممن اشتهر بالترسل فى ذلك الوقت ابن العميد وزير ركن الدولة الحسن ابن بويه وقد لقبه أهل عصره بالجاحظ الثانى لانه صاحب أسلوب جديد قلده فيه من بعده ونشأ على طريقته الصاحب بن عباد ولقب بذلك لصحبته ابن العميد وقد وزر لمؤيد الدولة بن ركن الدولة وهو واحد زمانه فى النهضة بالادب العربى على الطريقة التى كانت مستحسنة فى عصره وأبو اسحق الصابى وهو كاتب شاعر ومن آثاره منشئات الصابى وهو كتاب يشتمل على مراسلات كتبها على لسان ولاة الامور فى عصره من ملوك آل بويه والخلفاء وغيرهم وهى رسائل لا يستغنى عنها مؤرخ يريد أن يتعرف حال البلاد وحال الكتابة فى ذلك الزمان وله أيضا رسائل الصابى وهى تشبه فى الجملة كتاب المنشئات إلا أنها تزيد الشفاعات والمعاتبات والمودات وكلا الكتابين فى المكتبة السلطانية هذا

وقد كانت الرسائل جارية فى أول العهد العباسى على نحو ما كانت تجرى عليه فى عهد بنى أمية من جعل العبارة جزلة بليغة متناسقة لا يراد منها إلا فهم المعنى وقوة الحجة وبقيت كذلك الى آخر ذلك العهد ثم أخذت تتغلب عليها الصناعات اللفظية من السجع والجناس وما زال هذا يكثر حتى ثقل وصار بعد أن كان حلية عيبا لا بد للاديب أن يتصف به

هذا فى الكتابة الديوانية أو الاخوانيـة أما فى كتابة التأليف فلم يكن يلاحظ فيها ذلك اللهم إلا فى مقدمات بعضها وفى بعض التآليف النادرة كما

نرى فى تاريخ العتبى ثم تحولت الكتابة فى آخر العهد الثانى الى نثر يشبه الشعر من جهة خياله والى عبارة تحس فيها بالعجمة من جهة الاسلوب كما ترى فى رسائل ابن العميد وهى أجود رسائل هذا العصر ولقد أفرطت الطبقة التى جاءت بعد ابن العميد فى التحسين فأساءت وربما أحالت ولا أطيل بذكر الشواهد لها ويكفى أن تقرأ عهدا من العهود أو تولية قضاء لاجل أن تضجر كل الضجر من التطويل الممل والسجع المتكلف والجناس الذى ينادى بأنه جىء به من مكانه قسرا

ومن غريب ما تجد فى كتابة العهد الاخير أن تنظر فى كتابة الرجل بعض الاحيان فتراها سهلة بينة ناصعة عليها ثوب الفطرة وتنظر فى كلام له آخر فتجده مملوءا محاسن قد أثقلته حتى صعب عليه احتمالها كما اذا قرأت مقامات الحريرى ثم قرأت كتابه درة الغواص فى أوهام الخواص فان الذى يقرؤه ولا يعرف أنه للحريرى لا يظن أنه له لمخالفة لغته للغة المقامات من كل وجه فهو فيه يجرى على فطرته وفى المقامات يجرى على الاسلوب الذى به بز البديع فى ابداعه

كتابة التأليف — أما كتابة التأليف فانها كانت راقية جدا فى العهد الاول فانها كانت فطرية متينة محدودة للمعنى مختارة اللفظ سهلة التناول واضحة وهى مع ذلك فخمة كما ترى فى كتابة محمد بن سلام الجمحى فى الطبقات وكما ترى فى كتب الجاحظ وكتب أبى هلال العسكرى وكتب الاصمعى

والام للامام الشافعى وكتاب الخراج لابى يوسف وكتاب المغازى للواقدى وطبقات ابن سعد قد طبع أكثرها بأوربا وسيرة ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى) وهى أجل سيرة وصلت الينا فى عبارتها وصحتها وجمعها للادب من الشعر والنثر الذى كان فى الغزوات وسيرته هذه تلخيص لسيرة محمد بن اسحق بن يسار المطلبى . وكتاب تاريخ بغداد لاحمد ابن أبى طاهر المعروف بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ

وقد استمرت عبارة المؤلفين حتى الذين كانوا منهم عجما بحسب المنشأ أو الاصل كمحمد بن جرير الطبرى والشيخ عبد القاهر الجرجانى وأبى الفرج الاصبهانى الى قرب آخر العهد الثالث فان عباره التأليف فيه أخذت تغلق بكثرة المصطلحات وارتكاب الاساليب الضعيفة خصوصا منها كتب البلاغة التى جاءت بعد كتاب عبد القاهر فانها ما زالت تضعف الى أن وصلت الى شرحى السعد التفتازانى فوصلت من ضعف التأليف والعى فى البيان واستعمال الكلمات فى غير محلها اللغوى والمجازى وايراد عبارة لا تستعملها العرب الى حد لا يجوز البقاء عليه خصوصا فى هذا العصر عصر النهوض الجديد للغة هذا .

وأما التأليف فى الفنون فلكل فن طريقة فى الكتابة ومصطلح قلما يتعدى . وهذه الفنون قد حفظت طريقتها مدة طويلة وبقيت الى الايام الاخيرة فأخذت تتغير من نحو مائة سنة

أما علوم الحديث ومؤلفاته فانها كذلك حفظت صورتها والطريقة التى جرى عليها علماؤها كما ترى فى موطأ مالك ومسند احمد والسنن . هذا كله فى أكثر الاحوال فلا ينافى أن يشذ بعض أفراد فى بعض العصور فى الجودة والاسلوب وعلى الجملة حفظت التآليف طريقتها الى العصر الرابع فأخذت تتقهقر وأخذ المؤلفون يختصرون فيسيئون الى المؤلفات فى كل فن حتى أخذنا نشكو ونرجع الى الاصول التى أهملوها بمختصراتهم وهى خير ما يورثه السلف الخلف

مجمل حال اللغة قبل سقوط بغداد

كانت اللغة العربية أيام عز بنى العباس لسان العلم ولسان الخاصة فى مشارق الارض ومغاربها وترجمان علوم الدين والدنيا وكان الشغف بالتفوق فيها مشتركا بين الخلفاء والامراء والقواد والعلماء والشعراء والكتاب وكل ذى خطر والناس على دين ملوكهم وعلمائهم وأرباب الاخطار منهم ولهذا استنبط العلماء من الكتاب والسنة واللغة والاخبار علوما تعد بالمئات وكثر المجتهدون فى الدين واللغة والمخترعون للفنون كالخليل بن احمد فى العروض والقوافى واللغة وكأبى عبيدة فى المجاز وابن المعتز فى البديع والشافعى فى الاصول والبديع فى المقامات وابن أبى الربيع فى سلوك الممالك وابن خرداذبه فى احصائه

(احصاء جباية الممالك العباسية فى أواسط القرن الثالث) وقدامة بن جعفر فى ديوان البريد والطرق ومقادير الجباية سنة ٢٢٥ للهجرة وابن رسته فى الموسوعات وقد ترجمت موسوعة الاعلاق النفيسة باللغة الالمانيــة وكأبى يوسف يعقوب بن اسحق الكندى فى نقد علوم الاوائل فقد ألف أكثر من مائتى كتاب فى الفلسفة والحساب والنجوم والهندسة والطب والسياسة والطبيعيات والموسيقى وأحكام النفس والاحداث والآلات ونقد مؤلفيها من حكماء العالم نقدا صحيحا ولا تزال كتبه مشكاة يهتدى بها فى بعض مكاتب برلين وكأحمد بن على الكلدانى المعروف بابن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية الذى ألف سنة ٢١٩ ومنه نسخة فى المكتبة السلطانية

ولا أطيل بتعداد أمثال هؤلاء من المبرزين وانما الذى يعنينا أن نقول أن العلوم نضجت واتسعت مباحثها ورتبت وهذبت وبلغت مبلغا لم يعرف من قبل ولا من بعد إلا فى القرن الاخير لاوربا وقد كانت آثار العرب نبراسا فى طريق بحثها فسبحان مقلب الليل والنهار

وقد كانت بغداد محط رحال العلماء والادباء والشعراء من المشرق والمغرب وكانت تجيء اليها ثمرات العقول من أطراف العالم من أقصى تركستان فى الشرق الى أقصى الاندلس فى الغرب وكانت المؤلفات جامعة بين فصاحة العرب وذكاء الفرس فكانت صريحة محكمة لا تكاد تغادر شيئا فى نفس القارئ ومما زادها وضوحا وبيانا فى المقاصد هذه الحرية التى منحها

الخلفاء العباسيون لعلمائهم وأدبائهم فى تدوين التاريخ والملح والنوادر فانا نرى كل شئ فى ذلك العصر مكتوبا كما هو حتى محاضرات مجالس الخلفاء التى من شأنها أن تكتم فارتقت علوم الادب وساعد الاعاجم العرب فى ذلك فتعاون العرب والترك والفرس والديلم والروم وغيرهم على إنهاض العلم ثم أخذ شأن بغداد ينحط خصوصا بعد دخول السلاجقة حتى آل أمرها وأمر اللغة الى ما ترى

حال اللغة

من سقوط بغداد سنة ٦٥٦ الى زمن محمد على باشا

لا حياة للغة إلا فى ظل أهلها فكلما كان ظليلا ترعرعت وشبت شبابا حسنا وكلما تقلص ذلك الظل جف عرق نابض من عروق حياتها هذه سنة من سنن الكون يشهد بها التاريخ ولقد منى خلفاء العرب وأمراؤهم فى المشرق والمغرب بالترف والاستسلام للشهوات وتسليم الامر فى تدبير الملك الى أجناس شتى من الاعاجم والمستعربين الطامعين فى ملكهم فأخذوا يستبدون بالاحكام حتى على الخلفاء أنفسهم حتى كان من ذلك أن استقل كثير من هؤلاء الحكام ونقصوا من جسم الدولة وقامت لهم عصبيات تناهض العرب أينما كانوا فقامت دولة الديلم بفارس ثم السلاجقة فيما وراء النهر ثم الترك فى شمال آسيا الغربى والمماليك بمصر والشام ثم جاءت الطامة الكبرى

من أطراف الصين طامة التتر فما زالوا يخربون ويسفكون الدماء ويدمرون كل شئ يجيء فى طريقهم حتى وصلوا فى خراب المعمور الى بغداد فأعملوا فيها السيف أربعين يوما بعد فتحها واستسلام أهلها فقتلوا الرجال واستبوا الذرية وأباحوا لانفسهم كل منكر علانية وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى شر قتلة وبقى المسلمون بلا خليفة ثلاث سنين حتى أقاموا له فى مصر صورة دينية خاضعة للمماليك ولم يكف هلاكو ما فعل بالعباد والبلاد حتى عدا على كتب العلم فمزقها وحرقها وأطاح منها فى الدجلة ثمار عقول الفلاسفة والعلماء والادباء والشعراء ألى أن غَصّ النهر بالعلم الموءود فيه هذا الى عيث الافرنج ببلاد الشام ومصر وتلاحق الاحن بالبلاد الاسلامية من كل صوب من الاندلس الى الصين فكيف تكون حال اللغة فى هذه العصور السائلة بالدماء وبين أولئك الوحوش الاعاجم الذين هدموا مدارسها ومزقوا كتبها ثم أحلوا لغتهم فى كثير من الاصقاع محلها ولولا اسلام قازان ملك التتر وابقاء المماليك على اللغة العربية فى مصر والشام وبقاء المغرب فى يد العلويين وغيرهم من العرب لكانت اللغة الآن خبرا من الاخبار أو أثرا من الآثار

ماذا أصاب اللغة من جراء ذلك

أصابها أنها أخذت تأرز الى بلاد العرب من ناحية المشرق وكاد يخبو ضوءها من الهند وفارس وما وراء النهر والعراق العجمى حتى لم يبق لها

...

إلا فى بعض دواوين العلماء وبين سطور بعض الاسفار الدينية ولم يساعفها الحظ بعد أن أسلم أكثر أهل هذه الاصقاع أن تقوم لها قائمة بينهم بل ترجموا كثيرا من كتب الدين الى لغتهم حتى لا يتعربوا أو يدمجوا فى العرب فيخسروا عصبيتهم الجنسية . وهذا هو السر فى محافظة الترك على لغتهم وجعلها اللغة الرسمية فى دار الخلافة الاسلامية الى اليوم . ولو وقف الخطب باللغة عند انكماشها لهان ولكنه تعدى الى جوهرها فدخل الدخيل فى مادتها وروحها وأسلوبها وانتابها التحريف من الالسن المختلفة والضعفة من المؤلفين والجهلة من الكتاب والنساخ وضياع أمهات الكتب وفقد الرغبة من أرباب الدولة فيها فشوهت ديباجتها ووهى أسلوبها وانحصر التأليف بها فى دوائر ضيقة أكثرها فى نفس فنون اللغة وهو يدور بين اختصار وشرح للمختصر وتعليق عليه أو حاشية له وقد يشرح الشرح وتحشى الحاشية بكلام جله مماحكات لفظية لا تفيد علما ولا يستقر الذهن منها على شئ حتى أنك لتجد المثال الواحد يدور فى كل كتبهم سواء أكانت من كتب الفنون العربية أم من كتب الدين لجمود قرائحهم وخوفهم من الخطأ اذا جاءوا بشاهد آخر . فمن المماحكات اللفظيـة قول نور الدين أبى الحسن على بن محمد الأشمونى فى شرحه على ألفية ابن مالك وأنما أعربت هذه الاسماء (الاسماء الستة) بالأحرف توطئة لاعراب المثنى والمجموع على حده بها وذلك أنهم أرادوا أن يعربوا المثنى والمجموع بالأحرف للفرق بينهما وبين المفرد فأعربوا بعض المفردات

بها ليأنس بها الطبع فاذا انتقل الاعراب بها الى المثنى والمجموع لم ينفر منه لسابق الالفة وانما اختيرت هذه الاسماء لانها تشبه المثنى لفظا ومعنى أما لفظا فلانها لا تستعمل كذلك إلا مضافة والمضاف مع المضاف اليه اثنان وأما معنى فلاستلزام كل واحد منها آخر فالاب يستلزم ابنا والاخ يستلزم أخا وكذا البواقى . فانك تراه قد أسند للعرب ما لم يجىء فى خيالهم وقد جعل اللغة متداولة زمنا ما من غير مثنى ومجموع وهذا غير صحيح ثم علل اختيار الاسماء الستة بعلة مشتركة بينهما وبين اسماء كثيرة لم تعرب بالحروف وكل هذا لا يفيد فقها فى اللغة ولا فى قواعدها . وهذه كتب المؤلفين فى تلك العصور لا تزال بين أيدينا شاهدة على ما نقول ومن العجب أنك ترى أسخف العبارات وأحط التراكيب وأردأ الاستعارات وأقبح الكنايات لا تكثر كثرة مسئمة مرذولة إلا فى كتب الذين ألفوا فى علوم البلاغة حتى كأن البيان وسيلة الى العى والنظر كان وسيلة الى العمى فان كنت فى ريب من هذا فانظر الى كلام ابن بدرون من أدباء النصف الثانى من القرن السادس فقد قال فى طالعة شرحه على قصيدة ابن عبدون الفهرى وزير بنى الافطس : (الحمد لله الذى أفاض على ألسنتنا مائية البيان) الى آخر ما لا أجد نفسى تحتمل قراءته فضلا عن نقله

فاما علوم المنطق والجدل والفقه خصوصا فقه الحنفية فانها كانت ولا تزال معاول تهدم من بنيان اللغة لغلبة العجمة فيها والاكثار من الاصطلاح والخروج

بالـكلمات عن معانيها اللغوية وعدم المبالاة باستعمال ما لم يستعمله العرب من التراكيب والالفاظ حتى أصبحت لغة هذه الكتب ونحوها لغة خاصة بها وأصبح ذوق المدمنين على قراءتها فاسدا . فمن ذلك قولهم وألا لما حصل وقولهم انعدمت الزوجية وما هو الشئ وقولهم لما يحصل كذا يحصل كذا مما تراه مخالفا لمادة اللغة وتراكيبها هذا

ومن لطف الله أن هذه العصور المظلمة لم تخل على طول مدتها من كواكب مضيئة فى بعض الجهات وان لم يكن ضوءها متصلا بعضه ببعض فى كثير من الاحيان

الكتابة وأسلوبها

من سقوط بغداد الى زمن محمد على باشا

الكتابة فى هذه العصور وان اختلفت مذاهبها متقاربة فى الخصائص متلاحقة فى الانحطاط لا فرق فيها بين قطر وقطر الا بما لا يكاد يذكر وسواء فى ذلك كتابة الدواوين ورسائل الادباء وخطب الخطباء

أما كتابة التأليف فلها منزع آخر يختلف باختلاف مأخذ المؤلفين وسيجئ لها ذكر منفصل عما قريب . وتتميز كتابة هذا العهد بأمور منها

(١) التطويل الممل فى غير فائدة وأكثر ما يظهر ذلك فى التقاليد والصكوك ورسائل الامراء والملوك فانك تقرؤها حتى اذا أتممتها أخذت

تصيد الغرض منها فتجده بين أثنائها فى كلمة أو كلمتين . ترى ذلك واضحا فى التقاليد التى نقلها القلقشندى عنهم فى صبح الاعشى

(٢) كثرة الحشو للتوصل الى الاغراض اللفظيه من سجع وجناس ومالا يستحيل بالانعكاس كقول القاضى الارجانى

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وقولهم : سر فلا كبا بك الفرس ودام علا العماد

(٣) كثرة الدخيل وعدم المبالاة بالضبط وأظهر ما يكون ذلك فى أسماء الاعمال لارباب الدولة

(٤) تسرب الاسلوب الاعجمى وان شئت فقل تدفقه فى الكتابات الرسمية فأنهم قد يقدمون الصفة على الموصوف والمضاف اليه على المضاف فيقولون المؤيد شيخ ودولة عماد فى عماد الدولة وكزيادة الياء للتعظيم فى مثل الصاحب والاجل والكبير فيقولون الصاحبى الاجلى الكبيرى الخ

(٥) الاكثار من ألقاب التعظيم وجعل ذلك بمنزلة الرتب والاوسمة التى تعطى الآن للدلالة على الشرف ونباهة الشأن وقد جعلوا لكل عمل من أعمال الحكومة وغيرها ألقابا متعارفة عند الكتاب لا يجوز العدول عنها وقسموا كل عمل الى مراتب يطول ايرادها فمن ذلك لقب قاضى القضاة بالديار المصرية ويستوى فيه الشافعى والحنفى وهو الجناب العالى القاضوى الشيخى الكبيرى الى آخر ما يزيد عن خمسين لقبا . فهذا لقبه الرسمى الذى

يرادفه الآن صاحب السماحة فما بالك اذا أخذت تقرأ بعد هذا التحميد الطويل ثم تنتقل منه الى ذكر أمانى أمير المؤمنين أو السلطان وآماله فى المكتوب اليه ثم وصف حالة البلاد فى أيامه من الاسعاد ثم حال العمل الذى يراد اسناده الى ذلك العامل ثم الوصية بالقيام به على وفق الارادة السلطانية حتى اذا ضجرت من كل ذلك عثرت أخيراً على كلمة (ولينالك جهة كذا) وهنا يحبس البيان عن تفصيل العمل و نظامه ويحل الايجاز المخل محل الاطناب الممل فانظر الفرق بين هذا العهد وكتاب عمر فى القضاء الى أبى موسى الاشعرى رضى الله عنهما تجده مثل ما بين الظلمة والنور والهداية والضلال أو بين هذا وبين عهد الامام على الى الاشتر النخعى (٦) ومنها كثرة الاقتباس والتضمين مع ظهور التكلف فيهما (٧) ومنها غلبة الالفاظ المضافة الى الدين والملة والاسلام والمسلمين والمؤمنين وما كان من هذه الناحية (٨) ومنها التزام الاسجاع الطويلة والتزام قافية السجعه فى فقرات عديدة وهذا كثير فى خطب المنابر كما ترى فى ديوان النحاس مثلا وقد كان فضل الكتاب من قبل فى عكس هذا كما ترى (٩) ومنها كثرة العامية وأكثر ماترى ذلك فى تاريخ ابن أياس وتاريخ الجبرتى فترى الاول يقول ضربهم وبهدلهم ويقول كانت الاسعار متشحطه ومشطه ويقول ان العثمانيـة طفشت فى الحارات وحطوا غيظهم فى العبيد والغلمان والعوام من الزعر وغيرهم ولعبوا فيهم

بالسيف وكان عنده عترسه وملوحة رقبة (١٠) ومنها فشو اللحن الذى لا يخفى على صغار الطلبة مثل قول ابن أياس وكان مقدار من مثل فوق العشرة آلاف انسان فى مدة هذه الاربعة أيام ونجو ان كنتم نسيتونا فنحن ما نسينا كم وقوله أخرج ولاقينى فى الجزيرة ولا يعمل الآن مثلها أبدا . وانك لترى أمثال ذلك كثيرا حتى فى الكتب التى لأربابها شهرة بالعلم وبعض هذه العيوب يقل جدا فى كتابات الادباء حتى انه لا يكاد يوجد فى بعضها

التأليف

من سقوط بغداد الى زمن محمد على باشا

كثر التأليف فى هذه العصور وقلت مزاياه لأسباب جمة منها أن كثيراً ممن لم ينضج فيهم العلم قصدوا للتأليف ليلحقوا من تقدمهم فى الشهرة فكانوا بالنساخ أشبه منهم بالمؤلفين ومن هؤلاء الذين كتبوا فى البلاغة وسائر الفنون العربية كالعضد وسعد الدين التفتازانى والسيد الشريف وغيرهم ومنها استحكام ملكة التقليد وتخوين العقول فيما يطرأ عليها من الفيض وقد ظهر ذلك فى أواخر القرن الثامن ظهورا بينا أما فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن فقد كان المؤلفون يتراوحون بين الاستنباط والتقليد كابن مالك وابن الحاجب وابن الاثير والسكاكى وابن خلدون وهو أجودهم استنباطا وابن تيمية . أما القرن السادس فقد كان العلم فيه أجلى والاستنباط فيه أبين

وحسبك من أعلامه جار الله الزمخشرى وابن حزم والقاضى عياض وفخر الدين الرازى

أما فى القرون الاخيرة من التاسع الى الثانى عشر فان التأليف فيها يمتاز بالتعقيد وكثرة الاستطراد والخلط وأظهر ما يكون ذلك فى الكتب التى ألفت للكتب كالشروح والحواشى والتعاليق فانها تسير وراء العبارة المشروحة أو المحشاة كيفما سارت وتلتمس من الفنون مناسبات بعيدة مما لا محل لايراده وقد ظهر فى هذا العصر شئ لم يكن معروفا من قبل وهو سرقة الكتب وادعاؤها كخطط المقريزى يقول صاحب الضوء اللامع أنها صورة كتاب الاوحدى ظفر المقريزى بها فجعلها له وزاد عليها ما لا طائل تحته

اللغة العربية

بعد استيلاء السلطان سليم على مصر الى زمن محمد على باشا

لم تر اللغة العربية فى حياتها طوراً أحط من هذا الطور فقد زاحمتها اللغة التركيه فى الدواوين والالسن والمؤلفات ولم يبق الا العاميه والعربيـة التى لا تكاد تتميز من العجمة فى أسلوبها وكثير من مفرداتها لاسباب . منها انها لم تكن لسان أرباب النفوذ من الحكام . ومنها نهب النفائس من كتبها ووضعها فى مكاتب الاستانة وتخريب المدارس التى كانت آهلة بالطلاب أيام المماليك وضيق دائرة العلوم والذهاب فى تعليمها مذهب الفلسفة الخيالية مما

لا يربى ملكة ولا يقوم لسانا هذا الى قلة الترتيب فى التأليف وخلط المسائل وكثرة الاستطراد من كل فن الى غيره بلا داعية قوية حتى انك لتجد الاعراب قبل أن تصل الى باب الاعراب وأنواع الاقضية مذكورة فى شرح البسملة من كتب المنطق

العربية

اللغة الفرنية

من عهد محمد على باشا الى الآن

مضى قولنا فيما انتاب اللغة العربية بديار مصر بعد أن صارت ولاية عثمانية حتى جفت موارد أكثر العلوم خصوصا الهندسة والطب والفلك فلما ولى محمد على باشا رأى حاجته الى العلماء الاكفاء وعلم انه لا سبيل الى نهضته بالملك الا بالجرى على طريقة أوربا فانشأ المدارس . الهندسة والالسن والطب وغيرها ثم وجه عنايته الى ارساله البعثات الى أوربا فأرسل أول بعثة سنة ١٢٤١ وكان منها صاحب الآثار الجليلة رفاعه بك وما زال يوالى البعثات حتى تسنى له أن يرسل ٢٩٠ تلميذ كان لاكثرهم الفضل الاكبر فى نهضة مصر ومن هؤلاء الرجل الكبير على باشا مبارك . ومن أصول الاصلاح فى زمن محمد على باشا المطابع والجرائد والمجلات وسيأتى الكلام فيها فكان الاصلاح فى زمنه يرجع الى انشاء المدارس أولا وإرسال البعثات ثانيا والجرائد والمجلات ثالثا

فأما عبـاس الاول وسـعيد فانهما ألغيا أكثر المدارس ومحوا ديوان المعارف ووجها همتهما الى الحربية واللغة التركية . وأما اسماعيل فانه محمد على الثانى فقـد عنى بالمدارس فأعادها أحسن ما كانت وبعث البعوث الى أوربا وقدم الطباعة وساعد على نشر الجرائد والمجلات وقد كان للغة العربيةفى أيامه نهضة مباركة لا تزال مصر تتحرك بحركتها الى الآن وكان أعلامهذه النهضة الاستاذ الامام والاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان وابراهيم اللقانى بك ومحمود باشا سامى البارودى وفى مقدمتهم على باشا مبارك وأمثالهم فكانوا سببا فى بعث الكتب من مراقدها وسلامتها من يد الضياع وانشاء دار الكتب الخديوية فقامت للعلم سوق رائجة ولم تكتف حكومة اسماعيل بهذا حتى أمالت اليها أغصـان العلم فى الاسـتانة وسورية وتونس وبلاد المغرب والهند . هذا وأن من حسنات اسماعيل باشا إنشاء مدرسة دار العلوم لما عجز أولو الامر عن إصلاح التعليم فى الازهر على الوجه اللائق بحال العصر .

أما عهد توفيق باشا فكان فى مبدئه سائرا فى طريق الارتقاء فى كل شئ خصوصا العلم والادب والكتابة وانتشار الصحف وافتتاح دور العـلم ولكن لم تطل هذه المدة حتى جاءت الثورة العرابيـة ففرقت كثيرا من زعماء النهضة فى نواحى البلاد فنفى البارودى والاستاذ الامام وأخرج من قبل ذلك زعيم الزعماء جمال الدين الافغـانى واختفى نديم وألجم قانون المطبوعات حملة الاقلام وأرباب الصحف . ولما سعى الساعون فى إماتة هذا

القانون انطلقت الالسنة والاقلام وكثرت الصحف والمجلات واستفادت الامة فائدة عظمى

أثر الجرائد والمجلات

فى اللغة العربية

ظهرت الصحف في مصر أيام الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ فصدرت جريدتان باللغة الفرنسية ولما آل الامر الى محمد على باشا رأى أن من أرسخ أساس الاصلاح فى مصر الجرائد ولهذا أمر باصدار الوقائع الرسمية سنة ١٢٤٦ وكانت مصدر الاوامر والمنشورات والاخبار الخارجية والداخلية والتجارية والمقالات الادبية والعلمية وما زالت تتقلب فى الارتقاء والانحطاط بتقلب العمال وكان أرقى عهد لها أيام أن كان يحررها الاستاذ الامام رحمه الله ولم تبتدئ نهضة الصحف الا فى عهد اسماعيل فهو الذى ساعد أحمد فارس على نشر جوائبه فى مصر وان كان مصدرها الاستانة ولقد كثرت الجرائد في عهد المرحوم جمال الدين الافغانى لتشجيعه الكتاب وشحذ اذهانهم بافكاره فأما بعد الاحتلال فكان من أشهر الجرائد المقطم والمؤيد واللواء ومن أشهر المجلات المقتطف والهلال والمنار وكان للجرائد والمجلات أثر عظيم فى ترقية اللغة العربية من عدة جهات (الاولى) فى مادتها فقد وسعت الجرائد المستعمل منها بالتدريج (الثانية) فى أسلوبها فقد كان قبل الجرائد أشبه

بالاساليب التركية منه بالعربية فأما بعد الجرائد فكما ترى (الثالثة) فى اذاعة المؤلفات النافعة بين الجماهير (الرابعة) فى تحسين اللهجة العامة لكثرة محاكاة الناس عبارات الجرائد (الخامسة) فى أنها كانت ولا تزال ميدانا لتسابق القراء والكتاب وتلك فائدة عظمى . أما ذم الجرائد لفشو اللحن والاطالة فى موضع الاختصار والتحريف فى بعض ما تعربه وخداع الجمهور فليس شيئا كبيرا فى جانب فوائدها

الطباعة

وتأثيرها فى اللغة

لما دخل نابليون مصر كان يصحبه مجمع علمى وكان مع ذلك المجمع مطبعة عربية تطبع عليها المنشورات على أهل مصر فلما انجلت فرنسا عن مصر بقيت المطبعة مهملة الى أن أحياها المرحوم محمد على باشا وجلب اليها العمال والعدد والحروف فلما كان أيام توفيق صارت تلك المطبعة مصلحة أميرية وضم اليها مطبعتا المعارف والحربية وسمى الجميع المطبعة الاهلية وهى أكبر مطبعة للآن . ولم تنتشر المطابع فى مصر إلا فى عهد أماتة قانون المطبوعات بعد الاحتلال ومن أشهر المطابع الكبرى الآن مطبعة المقطم والاهرام . أما فائدة العلم والادب منها فانها سهلت على الناس حيازة الكتب النفيسة بأثمان يسيرة وقللت الخطأ الذى كان فاشياً فى الكتب الخطية ويسرت للجمهور قراءة

الكتب لتقارب حروفها وحملت المتنافسين فى التجارة على نشر المؤلفات فى الاقطار الشاسعة وعلى استخراج المدخر منها من نفائس الفنون النادرة وجملة القول أن كل حسنة للجرائد والمؤلفات والمؤلفين فانما مصدرها المطابع

الكتابة وأشهر الكتاب

من زمن محمد على الى الآن

كان للكتابة صورتان متميزتان إحداهما الادبية أو الانشائية وكانت سجعا مرصوفا فى موضوعات تافهة من شوق وعتاب وتقريظ وتعارف الى آخره مع الطول وتكلف البديع وقلة الوفاء بالغرض ومن ذلك ما كتبه الشيخ الخشاب وهو من أشهر الأدباء فى ذلك العهد الى الشيخ العطار يطلب منه حاشية الشذور وهو بعد الديباجه : لا يزال روض المجد بك نضيرا وأفق العلم بهذه الطلعة منيرا وبصر الحوادث عنه خاشعا وحسيرا ولا فتئت على كل فتى خدم العلم أميرا ولا برح وجه الزمان لمولانا طلقا وشذا المحافل بذكره عبقا وثغر السرور له باسما أن يتفضل بكتابه على الشذور لتقر الأعين وتنشرح الصدور :

الثانية كتابة الترسل وهى التى تكون فى المصالح العامة والمقالات وكان هذا النوع الى عهد اسماعيل فى منزلة بين العامية والعربية كما نرى ذلك فى كتاب المحاماة لفتحى باشا زغلول . أما فى عهد اسماعيل فقد نهضت الكتابة

من عقالها لأسباب جمة منها :

(١) كثرة خريجى المدارس وميلهم الى الكتابة البينة الفطرية (٢) تعلم اللغة على نظم ميسورة وعناية الحكومة بأمرها (٣) كثرة الوافدين مصر من الشام وغيرها من حملة الاقلام (٤) انشاء الجرائد العربية السيارة والمجلات الحافلة بالموضوعات المفيدة وكان الفضل الاول فى ذلك لاحمد فارس فى جوائبه وقد كانت فى مصر نهضة أخرى للمصريين بعد انشاء قلم المطبوعات الذى كان رئيسه الاستاذ الامام عليه الرحمة والرضوان فقد كان يراقب الجرائد وكتابة الدواوين مراقبة شديدة حتى لقد أنذر جريدة الاهرام وحتم عليها أن تختار المحررين الاكفاء وإلا أقفلها وعزم على مديرى الاقاليم ألا يكتبوا كتابة سقيمة ولذلك هرع المستخدمون الى المدارس الليلية حتى يثبتوا أنفسهم فى مراكزهم وتكون لهم الكرامة فى أعين معاصريهم

هذا وللكتابة من سنة ١٢٢٠ الى اليوم ثلاث طبقات (الاولى) فى الزمن وهى الاخيرة فى الترتيب طبقة الشيخ العطار والشيخ الخشاب وهى طبقة الصناعة الثقيلة فى المنشآت والادبية انحطاط الاسلوب فى غيرها (الثانية) وهى التى فاقت الاولى ولم تلحق الثالثة فى الترسل وقلة التكلف والقصد الى المعنى البعيد باللفظ القريب ومن أشهر هذه الطبقة رفاعه بك من متقدميها وعبد الله باشا فكرى من متأخريها (الثالثه) وهى التى حذت حذو

المتقدمين من فحول الكتاب فى العهد الاول كالامام على كرّم الله وجهه وابن المقفع والجاحظ وعبد القاهر وقد أضافت الى متانة الاسلوب صحة الفكر ومن أعلام هذه الطبقة احمد فارس والاستاذ الامام وابراهيم بك المويلحى والشيخ ابراهيم اليازجى ومحمد بك المويلحى والشيخ عبد الكريم سلمان واحمد بك لطفى السيد [illegible]

[illegible]

الخطابة

قد مشت الخطابة فى ذلك العهد قليلا جداً على نحو ما كانت فى بنى أمية وكان من أشهر خطبائه شبيب ابن شبة وعبد الصمد بن الفضل الرقاشى وابو جعفر صالح وغيرهم ولكنها لم تلبث ان استحالت الى فن مدون وعلم مقروء واشتغل الناس بعلمها عن القائها وذلك لامور منها . قعود الخلفاء عن الخطابة وانابة غيرهم منابهم فى الصلاة بالناس وتبليغ ما يريدون الى الولاة بالكتابة أو بلسان نوابهم :

ومنها أن الدولة لم تكن عربية بحتة فى اكثر أيام بنى العباس فقد استخدم المنصور الاتراك وانتصر المأمون على الأمين بأخواله الفرس وكان لهم الشأن الاول فى أمر الدولة ثم كان ما كان من استقلال الولايات وقيام اللغات المحلية مقام اللغة العربية فى كثير من الشؤون : ومنها أن العلماء اشتغلوا بترجمة كتب اليونان فى الخطابة ككتاب « أرسطو » وغيره فانصرف الناس

الى فهم قواعدها وأصولها وما يشترط فى الخطبة والخطيب وكيف يبتدئ وكيف يتخلص وكيف يوقع الاصوات وماذا ينبغى أن يلبس وكيف يجلس وماذا يبيه وماذا يزكيــه فى عين الجمهور وما شاكل ذلك وغفلوا عن العمل بما علموا لقلة الداعية اليه أو لفساد اللغة فى السنة الدهماء فضعف شأن الخطابة وشأن القائمين بها وقامت الكتب مقامها فى السفارات والحوادث وكادت تقصر على خطب الجمع والأعيـاد والمواسم وان شئت قلت لم يبق منها إلا خطب الوعظ . وقد رأى كثير من العلماء عجز القائمين بها عن أدائها على الوجه النافع فأخذوا يؤلفون الدواوين مطابقة للاحوال فى أزمانهم وأخذ خطباء المنابر يحفظونها ويلقونها كما هى فى المواسم التى جعلت لاجلها وقلما يلتفتون الى الحوادث الجديدة بكلام جديد لضعفهم عن ذلك : وقد يتفق أن يتنبه بعض الفضلاء فيؤلف ديوانا آخر يذكر فيه الحث أو النهى المناسب لما استجد من الشؤون . ثم مضت فترة طويلة بعد ضعف الامر وسقوط الخلافة من بغداد والخطباء لا يتصرفون فى شئ ممـا ورثوه من دواوين أسلافهم وان اختلفت الحوادث والبلدان التى ألف فيها الديوان : ثم بقى المسلمون فى الجهات التى لا تتكلم بالعربية يخطبون الخطبة فيها لا يفهمها الخطيب نفسه فما بالك بعامة من يسمعون وتصرفوا فى ادائها على المنـابر تصرفا عجيباً يلقونها بالتلحين والتوقيع كأنهم يتغنون بمدينة من مدن معبد . وقد بقى ذلك شأنهم الى اليوم فى الاستانة يقرءون الخطبة ويسمعونهـا تعبداً لا فهما ولا ارشادا

فأما الشأن فى البلاد الاخرى التى يتكلم أهلها باللهجات العربية المحرفة كمصر والشام والعراق و بلاد المغرب والسودان والصحراء فان أهلها أصيبوا بمن صنع لهم الدواوين لا على اقدارهم ولكن على اقدار من حضر كتب البلاغة على طريقة سعد الدين التفتازانى والسكاكى والسيد فأكثروا من المجازات والاستعارات وتصرفوا فى المروى تصرفا عجيبا لاجل الاسجاع التى التزموها فحرموا العامة من الفهم ولو سألوا عن معنى ما يسمعون خطيبهم لما كان حظه من عدم الفهم أقل من حظ أحدهم

مثال من خطب بنى العباس

خطب أبو جعفر المنصور يوم جمعه فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس اتقوا الله فقام اليه رجل فقال اذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين قال أبو جعفر سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذنى العزة بالاثم لقد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين وأما أنت « والتفت الى الرجل » والله ما الله أردت بها ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بها لوكانت العقوبة وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفينا انبثت ثم رجع الى موضعه من الخطبة

وخطب بمكة فقال أيها الناس انما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه

باذنه فقد جعلنى الله عليه فقفلا ان شاء ان يفتحنى فتحنى لاعطائكم وقسم أرزاقكم فان شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى فارغبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به فى كتابه اذ يقول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » أن يوفقنى للرشاد والصواب وأن يلهمنى الرأفة بكم والاحسان اليكم أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

وخطب الخليفة المأمون فى يوم جمعه فحمد الله وأثنى عليه وقال أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده فانه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم واستعدوا للموت فقد أظلكم وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا وعلموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فان الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى وما بين أحدكم وبين الجنة والنار الا الموت أن ينزل به وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة وان قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لافضل العدة

فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة

ليسوقها حتى تهجم منيته أغفل ما يكون عنها فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وتؤديه منيته الى شقوة نسأل الله أن يجعلنا واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة ربه غفله ولا تحل به بعد الموت فزعة أنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير فعال لما يريد. ومن خطبة له ولست أنهاكم عن الدنيا باكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها فان كل ما بها يحذر منها وينهى عنها وكل ما فيها يدعو الى غيرها وأعظم ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم كتاب الله لها والنهى عنها فانه تبارك وتعالى يقول: « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » وقال « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد» فانتفعوا بمعرفتكم بها وباخبار الله عنها واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها:

وخطب عبد الله بن طاهر أجناده وقد تيسر لقتال الخوارج فقال انكم فئة الله المجاهدون عن حقه الذابون عن دينه الذائدون عن محارمه الداعون الى ما أمر به من الاعتصام بحبله والطاعة لولاة أمره الذين جعلهم رعاة الدين ونظام المسلمين فاستنجزوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين شدوا وتمردوا وشقوا العصا وفارقوا الجماعة ومرقوا من الدين وسعوا فى الارض فسادا فانه تبارك وتعالى يقول « ان تنصروا الله

ينصركم ويثبت أقدامكم » فليكن الصبر معقلكم الذى اليه تلجئون وعدتكم التى بها تستظهرون فانه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه والجنة الحصينة التى أمركم الله بلباسها غضوا أبصاركم واخفتوا أصواتكم فى مصافكم وامضوا قدماً على بصائركم فارغين الى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم فانه يقول « اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » أيدكم الله بعز الصبر ووليكم بالحياطة والنصر

خطبة لسهل بن هرون — قال الحسن بن خليل

كان المأمون قد استثقل سهل بن هرون فدخل عليه سهل يوماوالناس عنده على منازلهم فتكلم المأمون بكلام فذهب فيه كل مذهب فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل بن هرون على ذلك الجمع فقال مالكم تسمعون ولا تعون وتشاهدون ولا تفهمون وتفهمون ولا تتعجبون وتنظرون ولا تبصرون والله انه ليفعل ويقول فى اليوم القصير مثل مافعل بنو مروان وقالوا فى الدهر الطويل عربكم كعجمهم وعجمكم كعبيدهم ولكن كيف يعرف الدواء من لا يشعر بالداء » قال فرجع له المأمون بعد ذلك الى الرأى الاول

خطبة خالد بن صفوان — كان خالد عند أبى العباس أمير المؤمنين وكان من سماره وأهل المنزلة عنده ففخر عليه ناس من بلحرث بن كعب واكثروا فى القول فقال أبو العباس لم لا تتكلم يا خالد فقال « أخوال أمير المؤمنين

وعصبته » قال « فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته » قال خالد « وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد. دل عليهم هدهد وغرقتهم فأرة وملكتهم امرأة »

خطبة شبيب بن شيبة — أقام أبو جعفر المنصور صالحا ابنه يتكلم فى أمرا فأحسن فقال شبيب بن شيبة تالله « ما رأيت كاليوم أبين بيانا ولا أجود لسانا ولا أربط جنانا ولا أبل ريقا ولا أحسن طريقا ولا أغمض عروقا من صالح وحق لمن كان امير المؤمنين أباه والمهدى أخاه أن يكون كما قال زهير

يطلب شأو امرأين قدما حسنا نالا الملوك وبذا هذه السوقا
هو الجواد فان يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

وأخرى له — قيل لبعض الخلفاء أن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعد به فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة افتضح فأمر رسولا فأخذ بيده فأصعده المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال ألا أن لامير المؤمنين أشباها أربعة الاسد الخادر والبحر الزاخر والقمر الباهر والربيع الناضر فأما الأسد فأشبه منه صولته ومضاؤه وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاؤه وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياؤه وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاؤه

ومن خطبه القصار قوله للمهدى لما مات والده الخليفة المنصور وأظهر

عليه جزعا شديداً .

يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض لك اذ قسم لك الدنيا الا بأسناها وأعلاها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضى الله لك من الدنيا وعليك بتقوى الله فانها عليكم نزلت ومنكم أخذت واليكم ردت

قد عزى شبيب المهدى على ابنة له ماتت فقال

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجراً وأعقبك صبراً ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خير لك منها ورحمة الله خير لها منك وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل الى رده . وأجمع النقاد من أهل العلم والادب على أنهم لم يسمعوا تعزية أعجب ولا أبلغ من هذه التعزية

وقال شبيب للمهدى « أراك الله فى بنيك ما أرى أباك فيك وأرى الله بنيك فيك ما أراك فى أبيك

ومن خطبة داود بن على التى خطبها على منبر الكوفة يوم بيعة أبى العباس يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون واليه تتشوفون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام ومن عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة فخذوا ما آتاكم

الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الامر أمركم فان لكل أهل بيت مصراً وأنتم مصرنا ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبى العباس) فاعلموا أن هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا

الشعر وأطواره وأغراضه فى العهد العباسى

تمهيد — لا يلمح الناظر الى العصور من خلال التاريخ عصراً أجدى على الأدب وأربى للعلم وأفسح للفكر من العصر العباسى خصوصاً منه صدره الذى ازدان بزينة الدنيا كلها

قد كان الظن بالشعر وقد زاحمته العلوم الدينيــة واللغوية والفلسفية والطبيعية والرياضية وغيرها، أن يأرز ويتراجع عن مده وأن يكون حظه مع هذه الفنون الجديدة (والجديد لذيذ) كحظ الواحد من ميراث يتقاسمه مائة وارث ولكن الامة فى شبابها تأتى بالعجب العجيب الذى يكاد يخرج عن يد الامكان فلم يثقل ظهرها تدوين لغتها ولا استنباط شريعتها ولا ترجمة علوم الدنيا فى ذلك العهد ولا سن الانا ظيم لذلك الملك الكبير ولا استثمار الممالك الواسعة التى لا تغيب عنها الشمس بل نهضت بكل هذا نهضة لم تزحم الشعر

لا فى مادته ولا فى معانيه ولا فى خياله ولم تقلل من رجاله بل زادتهم عدداً ونبوغا وتفنناً فى أغراضه وأساليبه وأوزانه حتى كان التزاحم على هذه العلوم إنما كان وسيلة لأعلاء الشعر وكأن العلوم جعلت مراقى له . ولا عجب فقد اجتمع العرب والعجم فى هذا الزمان على انهاض اللغة والعلم والدين وصافحت بلاغة العرب أفهام الفرس والهند والروم وبلغ التنافس بين هؤلاء الاقوام المبلغ الذى رأى فيه العجمى أن لا فضل للعربى عليه لانه يعرف من لسانه ودينه وعلمه ما يعرفه العربى بل قد نبغ كثير من الموالى وزاحموا العرب حتى فى فصاحتهم بل كان اكثر الشعراء منهم حتى فى الصدر الاول لهذه الدولة فهذا بشار بن برد حامل لواء الشعراء فى طليعة العصر العباسى من الموالى — وكذلك مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية والحسين ابن مطير مولى بنى أسد وسديف بن ميمون مولى خزاعة وداود بن سلم مولى بنى تميم وأبو دلامه وحماد عجرد وحسين بن الضحاك مولى باهله وأبان ابن عبد الحميد وهو الذى أبدع الشعر المزدوج والمسمط ونظم كتاب كليله ودمنه شعراً وفى مطلعه يقول

هـذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

ولا أطيل فيما هو مشهور وانما الذى نريد أن نقوله أن الموالى سارعوا الى النبوغ فى أحكام الدين وعلومه وحفظ اللغة وضبط فنونها والمهارة فى

الشعر والكتابة تقربا للعرب واستمطاراً لخيرهم الجم فلما أحسوا بتفوقهم نافسوهم في الملك والسلطان وخاصه في هذا العهد الذي قرب فيه العباسيون الفرس الناقمين على بني أمية وقربوا عاصمتهم منهم واستخدمهم الخلفاء في كل شئ جل أوقل ومنحوهم من المزايا ما لم يمنحوا العرب مثله فامتلأ جسم الدولة بهم وسرت العادات والمعتقدات من هؤلاء الى هؤلاء فسرى للشعر ما لم يكن له في زمن بني أمية وأخذ الشعراء يتفننون في المعاني والخيالات الجديدة ويتخذون الاساليب البديعه وان كان كثير منهم لم ينس ما كان عليه خصوصاً منهم من لم يختلط وذهبوا فيه مذاهب شتى فمنهم من تعشق الصنعة فيه والاحتيال على البديع كابن هرمة وبشار ومسلم وأبي تمام وابن المعتز وقد كثر بعد هؤلاء وثقل كما ترى في كثير من شعر ابن الفارض . ومنهم من ابتدع بدعة الغزل في المذكر وأول من عرف عنه ذلك والبة بن الحباب وقد اتبعه في ذلك وأربى عليه أبو نواس والحسين بن الضحاك ثم سرى الى من جاء بعدهم حتى صارا أمراً معتاداً لاكثر الشعراء وهذه المسألة لم تكن معروفة في جاهلية العرب ولا في صدر الاسلام ولكن الاختلاط بالترك والفرس جر اليها . ومنهم من أطلق لنفسه العنان في نعت الخمرة والحث عليها وتزيينها وأول من اشتهر بذلك شهرة ذائعة غالب بن عبدالقدوس أحد شعراء خراسان ثم تبعه الشعراء والسبب في ذلك أن بعض الفقهاء في العراق أحلوا شرب النبيذ وحرموا السكر وحدوه بحد غير مانع « وهو أن يصل الشارب الى حد

لا يعرف معه الرجل من المرأة ولا السماء من الارض » فكان الناس يشربون ويسكرون ولا يدخلون فى حد السكر فتساهل الامراء فى الامر وعقدوا مجالس الشرب وجمعوا اليهم الشعراء والمجان وأهل الخلاعة حتى يتم لهم الأنس فقالوا الاشعار فيها ثم تهتكوا ووصلوا فى التهتك إلى حد لم يسبق له نظير لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام . وهنالك سبب آخر وهو أن الحرية أطلقت خصوصاً زمن المأمون فأخذ كل يقول فكره بلا مبالاة فنشأ من ذلك ظهور الاباحيين ومن لا يرون فى الحياة إلا التمتع باللذائذ فانفسح بذلك ميدان الشهوات ومنهم من كان على عكس هؤلاء من التزهيد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله كأبى العتاهية وقد كان شعره دعامة من دعائم التصوف الذى الذى اضطر كثير من العلماء البصراء الى جلبه وصبغه بصبغة الدين حتى يردوا هذا التيار الجارف تيار الفسق والالحاد فان دخول الفلسفة وإذاعة الشبهات على الدين فى أمة أكثر حكامها وأهل المظاهر فيها من المشايعين لها يهز الامة هزة عنيفة ويخرجها عن طور الاعتدال فى المعتقدات ويغريها بالشهوات فلم يكن بد للعقلاء من أن يفكروا فى إنقاذ الامة من هذه الورطة ولذلك تصدى كثير من ذوى الدين والعقل الراجح أن يحتالوا على النفوس بابعادها عن الشهوات ومهاوى الهلكة بأن يحملوا العامة على اتباع شيوخ منهم ذوى دين وورع وألا يعملوا شيئاً إلا بارشادهم وأن يكون أحدهم مع شيخه كالميت فى يد الغاسل يقلبه فى الاعمال والمعتقدات كما يرى المصلحة له

ولا ينقله من درجة من العلم الى غيرها إلا إذا عرف الاولى حق المعرفة حتى تدخل عليه العقائد وهو مستعد لها ولا يهاجم بها مهاجمة فتضره وقد أفاد التصوف من هذا الوجه فائدة جليلة فانه أبقى على النـاس دينهم وأخلاقهم ونمى فيهم الصفات الفاضلة من حب الخير للناس وكف الاذى عنهم والسعى فى مصالحهم ووجود التآخى بين العربى والعجمى والعمل على أزالة الفوارق بين المسلم والمسلم ومكن كثيراً من النـاس أن يسيروا على سنة التدريج فى تعقل الاشياء حتى صاروا من النوابغ فى علوم الشرع وعلوم الدنيا وحتى حسدهم الفقهاء على منازلهم عند الامة وعند الامراء لانهم صاروا فيها بعد قدوة عامة وكانت لهم مكانة مرهوبة لان العـامة تبع لهم والحـكام فى كل عصر لا يرهبون شيئاً أكثر مما يرهبون العامة لانهم الامة ولان سيلهم الجارف إذا تحرك لا يرده راد ولا يصده صاد . والذى يهمنا من هـذا أن الشعر كما كان مدعاة الى اللهو والتهتك كان مدعاة الى الجد ومخافة الله وقد كثر هذا النوع منه فى آخر العهد العباسى حتى صار وعاء الحـكمه

وعلى الجملة قد انتقل الشعر العربى فى عهد العباسيين نقلة ظاهرة فى لفظه ومعناه وخياله وأسلوبه وانفساحه للعلم والحـكمه . أما لفظه فـكان على الجملة أرشق وأنصع وأبعد عن الحوشية اللهم ألا شعر الرجاز الأولين فانه كان أصعب من شعر البادين من شعراء الجاهلية كاراجيز رؤبة والزفيان ولولا أن الذين تقدمونا ممن شافهوهم أوشافهوا مشافهيهم شرحوا لنـا معانيها لم نـكن

لنستطيع اليوم أن نفهم ثلاثة أبيات منها متواليات وأن قرأنا القرآن والسنة والمعلقات . وهذه أشعار بشار وأبي نواس وعلى بن الجهم وابن المعتز وغيرهم ناطقة بذلك مثل قول بشار يتبرأ من الغزل ويمدح المهدى لما نهاه عن الغزل الذى يحض على الفجرر مثل قوله

(لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وان جرحا)
(عسر النساء الى مياسرة والصعب يسلس بعدما جمحا)
يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته
بعثت الى تسومنى برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنا ن كى على وما بكيته
ويشوقنى بيت الحبيب اذا ادكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه . . فصبرت عنه وما قليته
ونهانى الملك الهما م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهداً ولا رأياً رأيته
وأنا المطل على العدا واذا غلا الحمد اشتريته
وأميل فى أنس النديم من الحياء وما اشتهيته

أصفى الخليـل إذا دنا   وإذا نأى عنى نأيته

وقوله فى مدح عقبة بن سلم بن قتيبه

إنما لذة الجواد بن سلم   فى عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخو   ف ولـكن يلذ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحب   ويغشى منـازل الـكرماء

وقول أبى نواس فى صفة الخمرة

فتمشت فى مفاصلهم   كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت   مثل فعل النار فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها   كاهتداء السفر بالعـلم

وهذا ضرب من المبالغة التى أولع بها الشعراء المولدون وفاقوا بها الشعراء الذين تقدموهم . ولابى نواس خاصة مبالغات كثيرة مشهورة منها

وأخفت أهل الشرك حتى أنه   لتخافك النطف التى لم تخلق

ومن أكثر الناس مبالغة أبو الطيب المتنبى فى مثل قوله

روح تردد فى مثل الخلال اذا   أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقوله

عقدت سنابكها عليها عثيرا   لو تبتغى عنقا عليه لامكنا

وقوله

عقدت سنابكها عليها عثيرا · لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

وقوله

طلبتهم على الأمواه حتى · تخوف ان تفتشه السحاب

ومن البين الحسن المأخذ قول دعبل

أين الشباب وأية سلكا · لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل · ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعرى كيف يومكما · يا صاحبى اذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحداً · قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

أما معنى الشعر فقد كثر كثرة لا تقاس بغيرها فى عصر من العصور لعدة أمور . الاول . شيوع المعانى التى ورثت من السنة النبوية لان تدوينها ونشرها كانا فى هذا الزمن . الثانى . شيوع الكتاب العزيز وكثرة قرائه ومفسريه فان التآليف فى تفسيره لم تشتهر إلا فى هذا الزمن . الثالث . انتشار الحكمة عن الأولين مترجمة عن الفرس واليونان والهند . الرابع . اتساع الحضارة وازدياد الثروة وما يتبع ذلك من النعيم وجمال البناء والاثاث والرياش والجوارى والغلمان ومجالس الأدب والأنس . الخامس كثرة العطايا كما قال

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما تجود العطايا واللهى تفتح اللها

وفى شعر أبى العتاهية من المعانى المأخوذة من الكتاب والسنة وحكم الأولين شيء كثير وكذلك شعر صالح بن عبد القدوس على اتهامه بالزندقة

وأما شعر أبى الطيب فهو حكمة منظومة وكذلك شعر أبى العلاء المعرى وسنبين ذلك حينما نخصهما بالذكر

وأما الخيال فقد نما وبدع وان فى الاشعار التى مدح بها البرامكة وحدهم ما يربو على الخيالات السابقة ألا ترى الى قول مروان بن أبى حفصة فى المهدى يرد على الذين يقولون بالخلافة للعلويين

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبى فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بتراثهم فأردتموا ابطالها

وقول بشار بن برد

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

وقول أبى نواس فى الفضل

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقول مسلم فى يزيد بن مزيد الشيبانى

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى الى أمل

ينال بالرفق ما يعيا الرجال به . كالموت مستعجلا يأتى على مهل

وقوله فى مدح داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب

تجود بالنفس اذ أنت الضنين بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقول أبى تمام من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وتنظرى خبب الركاب ينصها محيي القريض الى مميت المال

وقوله

يا صاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهاراً مشرقا قد زانه زهر الربا فكأنما هو مقمر

وقول ابن الرومى فى بغداد وقد غاب عنها

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد

فاذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

وقوله فى صانع الرقاق

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

ألا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

أما اتساعه للعلم والحكمة ففى شعر أبان بن عبد الحميد فى الصدر الاول وشعر أبى الطيب فى أول الصدر الثانى وأبى العلاء فى آخره ما فيه مقنع

وأما الاسلوب فان أريد به وضع الكلمات مواضعها فى النظم فانه باق على ما كان عليه وان غير لم يكن كلاما عربيا. وأما ان أريد به محاكاة العرب فى طريقتها فى نظم الشعر من جهة وزنه وقافيته أو من جهة افتتاحه بالغزل ثم الانتقال منه بنحو دع ذا أو بالاقتضاب فقد تغير كثيراً

أما الأوزان فقد زيد فيها أنواع شتى منها أوزان ولدها الخليل من عكس دوائر البحور كالمستطيل وهو عكس الطويل وكالممتد وهو عكس المديد . وقد اخترع الشعراء أوزانا كثيرة خصوصا أوزان الموشح والمواليا والفنون السبعة التى اخترعت فى الدولة العباسية

وأما القافية فقد استحدث فيها المسمط وهو الابتداء ببيت مصرع ثم بأربعة أشطار على قافية واحدة ثم بشطر من جنس ما ابتدأ به . ثم المخمس وهو الاتيان بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى . ثم المزدوج وهو الذى نظمت به المتون كألفية ابن مالك كل شطرين بقافية وهكذا وأول من نظم فى هذه الانواع على ما وصل الينا بشار بن برد وأبان فى ترجمة كليلة ودمنة وبشر بن المعتمر وابن المعتز ثم كثر بعد ذلك كثرته المعروفة

أغراض الشعر

أما أغراضه فانها تابعة فى زيادتها زيادة المدنية فقد زادت أغراضه فى بنى أمية عن الجاهلية وزادت فى هذه الدولة عن دولة بنى أمية وهى أثارة

العصبية والمفاخرة بالايام والأعمال غير أن المفاخرة فى هذا الطور لم تكن بين العرب خاصة بل كانت إما بين العرب والعجم كما فى شعر بشار وعبدالله ابن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من الشعوبية الذين يفضلون العجم على العرب وإما بين المضرية واليمانية كما فى شعر قنبر ومسلم بن الوليد كانا يتهاجيان يفضل الأول المضرية والثانى اليمانية

وأما بين شيعة آل العباس وآل أبى طالب كما فى شعر مروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى

الثانى — الغزل والتطرف به كما فى شعر عباس بن الأحنف

الثالث — التكسب به وقد زاد فظاعة فى هذا العصر وتكالب اكثر الشعراء على بيوت الخلفاء والامراء وتوسلوا لذلك بكل ما يستطاع وقد أفسح الخلفاء العباسيون للشعراء الاقامة عندهم فتحضر كثير منهم ومرن على الملق فقل فيهم صاحب السيادة وقل العفيف

الرابع — الخلاعة والمجون وقد اشتهر بذلك أبو نواس وأضرابه ولم يكن فاشيا من قبل وانما جر هذا الانغماس فى النعيم واسترسال الأمراء فى منادمة الشعراء فى مجالس أنسهم

الخامس — تقييد الحكمة وقد زاد هذا زيادة مطردة حتى فى زمن ضعف الخلافه فانه ظهر بأكمل مظاهره لان التعاليم كانت استقرت فى الناس وسارت حتى سهل على الدهماء أن يفهموها من الشعر وأن يقيدوها فيه

السادس — نظم الكتب والمتون والقصص وقد زاد هذا ايضا زيادة مطردة حتى إبان الضعف بل كان فيه أظهر منه أيام القوة

السابع — التحلى بالأدب ليصلح الشاعر لمجالسة العظماء

الثامن — التهانى بالاعياد والمواسم وقد كثر فى هذا الطور كقول أشجع وقد دخل على الرشيد فى عيد الفطر

استقبل العبد بعمر جديد　　مدت لك الايام حبل الخلود
واطو رداء الشمس ما أطلعت　　نوراً جديداً كل يوم جديد
تمضى لك الايام ذا غبطة　　اذا أتى عيد طوى عمر عيد

لأن مجالسهم لم تكن تخلو من الأدب والمتأدبين ومطارحة الاشعار وانشائها فى وصف الاشياء وقد كان الخلفاء يمتحنون الشعراء فى وصف السيوف أو الجوارى أو أيام الصيد والأنس تشحيذاً لقرائحهم ولاعدادهم لنيل جوائزهم وكان المهدى والرشيد من اكثر الخلفاء بحثاً فى الشعر والرواية وربما عقد المجلس الحافل للبحث فى معنى بيت . وعلى الجملة كانت بغداد تجمع العلماء والرواة والشعراء والكتاب وكان خلفاؤها يقربون كل من ينتسب الى علم أو يمت الى الأدب بوسيلة

الثامن — ترقيقه للتغنى به والحظوة عند الاكابر وقد كان ذلك فى الجوارى والغلمان وهو فى الجوارى اكثر ولذلك فشا الأدب بين الموالى من الرجال والنساء فشواً كاد ينسى الناس ما عند العرب منه . ومن ذلك

مما رواه صاحب الأغانى أن المتوكل دعا على بن الجهم وقال له انى دخلت على قبيحة فوجدتها قد كتبت اسمى على خدها بغالية فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد . وكانت محبوبة جارية المتوكل تسمع من وراء الستر (وهى جارية مولدة أهداها عبد الله بن طاهر فى جملة أربعمائة وصيفة الى المتوكل) فطلب ابن الجهم دواة وأخذ يفكر فقالت محبوبة على البديهة من غير فكر ولا روية

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفرا   بنفسى مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها   لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه   مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويا من مناها فى السريرة جعفر   سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وبقى على بن الجهم واجما لا ينطق وهو عربى قرشى فصيح مطبوع قربه المتوكل وجعله من جلسائه

ذكر بعض من اشتهر من الشعراء فى العهد العباسى

الشعراء فى عهد بنى العباس اكثر من أن يعدوا ومن أشهرهم فى العهد الأول بشار بن برد والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة وهم من مخضرمى الدولتين وأبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية فى العهد الذى يليه وأبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وهم أعلام زمانهم ثم أبو الطيب

المتنبي وأبو فراس الحمدانى ثم أبو العلاء المعرى وابن زيدون وابن هانئ وابن عمار من الاندلسيين . ولا ينفسح الوقت لبيان أقدار هؤلاء الشعراء وأضرابهم ومقارنة بعضهم ببعض ولذا عمدنا الى تخصيص بعض مشهوريهم بالذكر كأبى نواس وأبى الطيب وابن زيدون ليكون ذلك مثالا للطالب يحتذيه اذا كتب أو نقب

أبو نواس

هو الحسن بن هانئ الحكمى وانما نسب الى الحكمى لان جده عبد الاول ابن الصباح كان من موالى عبد الله الحكمى والى خراسان فى عصر بنى أمية وأما أبوه هانئ فقد كان من أهل دمشق ومن جند مروان ابن محمد الحمار وانتقل الى الأهواز للرباط بها فتزوج جلبان وكانت إقامتها فى قرية استان ما تارد فولدت له أبا نواس سنة ١٤١ هـ فى خلافة أبى جعفر المنصور ثم انتقل والداه بعد سنتين من ميلاده الى البصرة فنشأ بها فأسلمته أمه الى عطار ليتخرج فى تجارة العطارين وقد كان مع هذا يختلف الى الادباء ويتعرف أخبارهم وأشعارهم ويتحفظ لمتقدميهم ويعجب بشعر النابغين من عصره. ويتلقف أخبار الادباء من العواصم الاسلامية ويتسقط أندية الأدب فى البصرة ويحاول مجاراة أصحاب الغرائز المطبوعين من الشعراء

وكان فى طبع أبى نواس رقة وفى شمائله ظرف وفى وجهه وسامة وفى

منطقه عذوبة وكان ميالا الى الشعر الجيد السهل المخلوط بالمجون لان فيه فكاهة ولزوايته فى مجالس اللهو موقعاً من النفوس ليس لسواه فرأى فى شعر والبه بن الحباب طلبه فأحبه على بعد الدار وكان والبه من أهل الكوفة وكانت نفس أبى نواس تتعشق روحه على البعد فاتفق ان قصد والبه الاهواز ليمدح أبا بجير الاسدى عامل المنصور عليها فمر فى طريقه بالبصرة على العطار ليأخذ بعض حاجة فى السفر فلقى عنده شاباً جميل الصورة ذكى الفؤاد خفيف الظل طلق اللسان حسن الخيال حاضر الجواب جم الظرف فجلس يحادثه ويناشده فأعجب به ذلك الشاب وأحبه والبه لما رأى فيه من مخايل النجابة وظرف الشمائل وقال له ان فيك مخايل أرى ألا تضيعها وستقول الشعر فهل تصحبنى أخرجك فقال ومن أنت قال أنا أبو أسامة والبه بن الحباب فقال نعم أنا والله فى طلبك ولقد أردت الخروج الى الكوفة لآخذ عنك وأسمع منك . فكأن أبا نواس قد ساق الله اليه سعادته وصافح كل أمانيه فجأة فمضى معه وصحبه بالكوفة ولازم مجالس الادباء والخلفاء معه وكان يختلف أثناء ذلك الى العلماء بالاخبار والاخبار فيأخذ عنهم ومن هؤلاء أبو زيد الانصارى وأبو عبيدة معمر ابن المثنى ولم يكن ليغفل النظر فيما كتبه العلماء والادباء من كتب اللغة والنحو وغيرها فلم يفته كتاب سيبويه ولا كتب أبى عبيدة والفراء وأمثالهم

بل انعم النظر فيها واجاد فهمها فنبغ له طبع فى الشعر وفهم فى العلم ليسا لغيره من امثاله وما زال يستزيد حتى فاق نظراءه من اصحاب والبه وشهد له العلماء بالنبوغ فى علومهم ودخل فى عداد الطبقة الاولى فى نظر مجالسيه وان لم يعرفه الخلفاء والامراء اذذاك فلما تاقت نفسه الى هذا المظهر الذى هو به جدير قدم بغداد وقد اربت سنه على الثلاثين فلم يدرك بها احداً من الخلفاء قبل الرشيد فاتصل ببعض الامراء الذين كانوا يعرفون بعض اخباره من الشعراء الوافدين عليهم فرأوا منه فوق ما سمعوا وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه فمدحه ونال عنده حظوة لم ينلها شاعر قبله واتصل بكثير من امراء الامصار فمدحهم

ومنهم الخصيب احد الامراء بمصر ثم انقطع بعد هرون الى ولده محمد الامين ولم يزل يتبسط على النعيم معه الى ان مات فلحقه ابو نواس بعيد قتله فى آخر سنة تسع وتسعين ومائه او اول مائتين

(مكانته فى الشعر والادب)

قد حدد ابو نواس درجته فقال . سفلت عن طبقة من كان قبلى وعلوت على طبقة من جاء بعدى فأنا نسيج وحدى وكأنه قد اطلع على الغيب فأخبر خبراً صادقاً عمن يجيء بعده فإنا لم نر حتى الساعة من برّ ابا نواس فى الادب من الذين جاءوا بعده

ولعله يريد بالتسفل عمن قبله والارتفاع عمن بعده الاسلوب فان كان كذلك فكلامه صدق وان اريد التفنن في الشعر والطبع وسعة الخيال وحضور البديهة وغرازة المادة وحسن الاختيار فلا يخلو كلامه من تواضع لان كثيراً ممن تقدمه لم يبلغ مبلغه في هذا فلم يكن عمر بن ابي ربيعة على شهرته كابي نواس في التفنن ولم يكن الفرزدق مثله في حضور البديهة ولا الاخطل في سعة الخيال ونعت الخمر والغيد وايام الصيد بل لا نعرف من يماثله في ذلك. اما تفوقه على معاصريه فيدل عليه انه كان يقول القصيدة المتمة الملأى بالمعاني المبتدعة في الاسلوب الظريف فيهب الشعراء الى معارضتها ويتمملون لذلك وهي بين أيديهم يعرفون لفظها ويفهمون معناها ولا يبلغون شأوها وقد بلغ معارضوه من كبار الشعراء في عصره نيفاً وأربعين شاعرا وشاعرة وكل هؤلاء كانوا دونه كما قال . فاذا عارض هو سواه بزه فقد بزابان بن عبدالحميد اللاحق لما ناقضه في القصيدة التي رفعها الى الفضل بن يحيي ومطلعها .

أنا من بغية الامير وكنز   من كنوز الامير ذو افصاح
كاتب حاسب خطيب أديب   ناصح راجح على النصّاح
شاعر مفلق أخف من الريشـــة مما تكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة وانتقاد   أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروي من ابن سيرين للشعـــر وقول النسيب والامداح

وظريف الحديث من كل فن   وبصير بترهات الملاح

وهى طويلة فناقضه أبو نواس بأخرى قال فى مطلعها

أنت أولى بقلة الحظ مني   يامسمى بالبلبل الصياح

لم يكن فيك من صفاتك شيء   غير خلق مجدر دحداح

لحية نطة ووجه قبيح   وانثناء عن النهى والصلاح

فيك مايحمل الملوك على الخز   ق ويزري بالسيد الجحجاح

فيك تيه وفيك عجب شديد   وطماح يفوق كل طماح

بارد الطرف مظلم الكذب ذوخر   ق معيد الحديث نزر المزاح

فالذى قلت فيك باق صحيح   والذى قلت ذاهب في الرياح

فانك لاتجد فى كل قصيدة ابان مايزن قول أبى نواس (بارد الطرف) وحدها ولما قال أبو نواس

دع عنك لومى فان اللوم اغراء   وداونى بالتى كانت هى الدواء

عارضه كثير من الشعراء منهم الحسين بن الضحاك بقصيدة طويلة مطلعها

بدلت من نفحات الورد بالآء   ومن صبوحك در الابل والشاء

ثم ذهب الى ابن مياده بمكة ليسمعها ويحكم بينه وبين أبى نواس فأسمعه قصيدته فكان كلما أتى على بيت منها قال جيد حتى أتى عليها كلها فلما استنشده قصيدة أبى نواس وبلغ قوله فيها

صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

قال ان هـذا البيت يفي بقصيدتك . ثم عارضها بعـد ابن المعتز فأجاد الاحسان وكانا فرسي رهان وبقي الفضل للمتقدم

هذا ولا نطيل بذكر معارضيه كمسلم بن الوليد والجزاز والرقاش واضرابهم فان أحداً من هؤلاء لم يظفر به وأ كثرهم انقطع خلفه بمراحل .

وقد عارضه الذين جاءوا بعده ومنهم أمير الشعر رب السيف والقلم المرحوم محمود سامي باشا البارودي فوفق الى ما يغبطه عليه الأولون او وصل اليهم علمه عارضه فى قصيدة الخصيب التى ستجىء بعد

ومن وجوه تفوقه انه كان يطارح أهـل عصره ويماتنهم على البديهـة فلم يكن منهم احضر بديهـة ولا اسد جوابا ولا احكم معنى ولا ارشـق لفظا ولا اكثر ابداعا منه واخبار مماتناته ومطارحاته وبدائع بدائهه مبسوطة فى ديوانه وغيره من كتب الادب

ومن وجوه التفوق ايضا انك تجـده على كثرة ما قال فى فنون الشعر وضروبه الطريفة وعلى ما يخيل اليك انه غير متخصص قد فاق المتخصصين فى كل ما تخصصوا به فتجده فى غزله أغزل من العباس بن الاحنف وأنى له مثل قوله

انى لأرحم قلبي أن أكلفه عنك السلو ولو قطعت أنفاسى
الله فى قصد عـذبتنى حججاً بالقرب والبعد والاطماع والياس

أو قوله .

لو نظرت عينها الى حجر ولد فيه فتورها سقما

وتجده فى النصح والوعظ أوعظ وأرشد من أبى العتاهية وهل فى شعر أبى العتاهية فى الحث على الصمت فى موضعه مثل قول أبى نواس

خل حبيبك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمز ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آجا ل نيام وقيام
انما السالم من ألجم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحـ ـة منهم والسقام
وعليك القصد ان الـ ـقصد أبقى للحمام
شبت ياهذا وما تـ ـترك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

فان وجد مثل هذا فهل تجد مثل قوله

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

فان المأمون لما أنشد هذا البيت قال : لو أن الدنيا نطقت فوصفت نفسها لما عبرت عنها عبارة أبى نواس

واذا نظرت الى شعر الزهاد والعباد وقرنته بشعره رأيت شعره فى

هذا المعنى يفوق أشعارهم بحسن سبكه وخفة ظله وأحكام ماجاء فيه وهل تجد أحداً من النساك ابى فى حجة تلبية أبي نواس في قوله حينما حج ولبى

الهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك لبيك ان الحمد لك
والملك لاشريك لك ماخاب عبد سألك
أنت له حيث سلك لولاك يارب هلك
لبيك ان الحمد لك والملك لاشريك لك
كل نبي وملك وكل من أهل لك
وكل عبد سألك سبح أو لبى فلك
لبيك ان الحمد لك والملك لاشريك لك
والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك لبيك ان الحمد لك
والملك لاشريك لك ياخاطئاً ما أغفلك
اعمل وبادر أجلك واختم بخير عملك
لبيك ان الحمد لك والملك لاشريك لك

وقل كذلك فى المداح والمجان والوصافين ولو شئنا تبيان ذلك كله لما وسعنا فيه مؤلف حافل . وجملة القول ان أبا نواس قال فى كل شىء وأجاده وحسبه قول البحترى فيه (لو قسم احسان أبى نواس على جميع الناس لوسعهم)

(شعره وأثره)

هو أكثر طبقته شعراولا يقل ما نقل عنه نقلا صحيحاً عن عشرة آلاف بيت وأكثرها فى المدائح والخمريات والمجون والاهاجى وصفات أيام الصيد ومجالس الانس وقد سقط من شعره شيء كثير من الرواة وروى له أهل مصر أشعارا لم يعرفها أهل العراق وفى العراق شعر لم يعرفه أهل مصر ووجدت نقائص كثيرة نقص بها أصحابها أشعارا له ولم يعثر الرواة عليها وانما عثروا على أبيات مفردة منها وكل ذلك يدل على ان الرجل كان كالمعين النابعة التى لا ينقطع ماؤها العذب وقد بسط ذلك حمزة بن الحسن الاصبهانى فى مقدمة الديوان وبين مقدار ما جمعه من شعره

أما أثر شعره فى النفوس فالشغف بالشهوات وتلبية دواعى الهوى فانه انفرد بالابداع فى نعت الخمرة فقد وصفها كما يقول أحمد بن يوسف الكاتب وصفا لو سمعه الحسنان (يريد الحسن البصري وابن سيرين) لهاجرا اليها واعتكفا عليها وقد كانا من كبار الصالحين والعلماء العاملين وحسبك انه زاد هذه البدعة الرذلة بدعة الغزل فى المذكر وبالغ فى التهتك والاستهتار بفروع الدين ومتى جاءه المعنى البدع قاله وان جرح فى طريقة المعصوم كما قال فى الابيات التى أرسلها الى عنان محبوبته الشاعرة النابهة وقد رآها مسلم في يد خادمه وهو ذاهب فأخذها وخرقها شفقة على أبى نواس وحنقاً على ما جاء فيها وهى

لا تأمنن على سرى وسركم غيرى وغيرك أوطى القراطيس
أوطير فيروزج انى سأبعثه قدكان صاحب تدليس وتدسيس
وكان هم سليمن ليذبحه لولا قيادته فى أمر بلقيس

فأنت تراه فى البيت الأخير قد قلب المعنى الذى جاء به الهدهد لسليمن وهو اخباره عن مملكة سبأ وعن جندها وقوتها وعبادتها للشمس وغير ذلك وان سليمن انما عفا عنه لانه قام له فى هذا الفتح مقام الرواد الناصحين وليس فى الحكاية مايدل على المعنى الذى اخترعه ليفكه به صاحبته أو من يطلع عليه من أخصائه. وله فى بعض قصائده من هذا شيء كثير بل فيه صريح الكفر والحث عليه مثل قوله

ألا فاسقني خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهر
فعيش الفتى فى سكرة بعد سكرة فان طال هذا عنده قصر الدهر
وما الغبن الا أن ترانى صاحياً وما الغنم الا ان يتعتعنى السكر
فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر
ولا خير فى فتك بغير مجانة ولا فى مجون ليس يتبعه كفر

فقد جرى وراء شهواته الى حد الاستهتار بالمعاصى والتلذذ بالفضيحة والمروق عن الجادة فى الدين وقد صادف قوله هذا وأمثاله هوى من نفوس الناس وقد كانت دبت اليهم فلسفة اليونان ونشا فيهم علم الكلام وايراد

(١٠)

الشبه على الدين فكان شعر أبي نواس مشايعاً لذلك الدبيب وقد عده بعض الناس ظرفاً وأدباً فترسلوا فيه وحاكوه وتنادروا به ومزجوه بأشعارهم ورسائلهم الخاصة وافتتنوا به أي افتتان وتناقله الخلف وجري كثير منهم على طريقته وان كانوا لا يشربون الخمر ولا يأتون الفواحش وانما كان ذلك منهم تظرفاً وأدباً في نظرهم . ولو نقل الينا شعر بشار كما نقل شعر أبي نواس لكانت الجناية على اللغة من حيث الآداب أنكى لان أبا نواس نزع منزع بشار لفظا ومعنى وكثيراً ماجري في مضمار معانيه وتابعه في زندقته وتهتكه وساعده على ذلك منشؤه بين الخلعاء والمجان في الكوفة مع والبة والحسين ابن الضحاك الخليع وغيرهما وقد قال الجاحظ في وصف الشعراء « وأما بشار وأبو نواس فمناهما واحد والعدة اثنان بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا أذن » . واذا نظرت في شعر أبي نواس وجدته كما قال الجاحظ خصوصاً منه ما كان في صفة الخمر وسقاتها . ألا ترى الى قوله وقد ترك طريق المتقدمين في افتتاح قصائدهم بذكر من يحبونهم محبة صحيحة عفيفة وحث على انتهاز اللذات الحاضرة

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاساً اذا انحدرت في حلق شاربها أجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكاس لؤلؤة في كف جارية ممشوقة القد

تسقيك من يدها خمراً ومن فمها   خمرا فما لك فى سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحدة   شيء خصصت به من دونهم وحدى

فاذا كان شعره يدخل الى النفس بلا استئذان كما قال الجاحظ وكان على ماوصفنا من المجون الفاسق والدعوة الى الشهوات المهلكة وكانت نفوس الشبان فى كل عصر شديدة التأثر بما يجيئها من ناحية الشهوات وكانت أفكار كثير من الباحثين مضطربة فى بعض المسائل الاعتقادية كان شعر أبى نواس مدعاة الى الزلل فى الاعتقاد وسقوط النفس فى مهاوى الهلكة بالفسوق

ومن أشهر قصائده فى المدح مدحة الخصيب وقد أنشده اياها بعد أن أنشده الشعراء وقال انها كعصا موسى تلقف ما يأفكون ومطلعها

اجارة بيتينا أبوك غيور   وميسور مايرجى لديك عسير

وفيها يقول

تقول التى عن بيتها خف مركبى   عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب   بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر   جرت فجرى فى أثرهن عبير
ذرينى أكثر حاسديك برحلة   الى بلد فيه (الخصيب) أمير
اذا لم تزر أرض (الخصيب) ركابنا   فأي فتى بعد (الخصيب) تزور

ويقول فى آخرها

زها بالخصيب السيف والرمح فى الوغى ... وفى السلم يزهو منبر وسرير
وانى جدير اذ بلغتك بالمنى ... وأنت بما أملت منك جدير
فان تولنى منك الجميل فأهله ... والا فانى عاذر وشكور

ومدحة العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ومطلعها

أيها المنتاب من عفره ... لست من ليلى ولا سمره
لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

وفيها يقول

فامض لا تمنن على يداً ... منك المعروف من كدره

ومدحته لمحمد الامين بن هرون الرشيد وقد كان عرفه أيام أبيه ولكنه ذهل عنه فأذكره به الفضل بن الربيع ووصفه له فلما أدخله اليه قام بين يديه منشداً

يادار مافعلت بك الايام ... ضامتك والايام ليس تضام
عرم الزمان على الذين عهدتهم ... بك قاطنين وللزمان عرام
أيام لا أغشى لاهلك منزلا ... الا مراقبة على ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ... وأسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت مابلغ امرؤ بشبابه ... فاذا عصارة كل ذاك أثام
وتجشمت بى هول كل تنوفة ... هوجاء فيها جرأة اقدام
تذر المطى وراءها فكانها ... صف تقدمهن وهى أمام

واذا المطى بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصا ... فلها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر ... قمر تقطع دونه الاوهام
ملك اذا علقت يداك بحبله ... لا يعتريك البؤس والاعدام
ملك أغر اذا شربت بوجهه ... لم يعدك التبجيل والاعظام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة ... لبس الشباب بنوره الاسلام
سبط البنان اذا احتبى بنجاده ... قرع الجماجم والسماط قيام
ان الذى يرضي الاله بهديه ... ملك تردى الملك وهو غلام
ملك اذا اعتسف الامور مضى به ... رأى يفل السيف وهو حسام
داوى به الله القلوب من العمى ... حتى أفقن وما بهن سقام
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر ... أملا لعقد حباله استحكام
فسلمت للامر الذى ترجى له ... وتقاعست عن يومك الايام

وله مراث مشهورة منها قوله فى الامين رحمه الله

يا أمين الله من للندى ... وعصمة الضعفي وفك الاسير
خلفتنا بعدك نبكي على ... دنياك والدين بدمع غزير

وقوله يصف حاله ويسال الله العفو عنه

أرانى مع الاحياء حيا وأكثرى ... على الدهر ميت قد تخرمه الدهر
فما لم يمت منى بما مات ناهض ... فبعضى لبعضى دون قبر البلى قبر

فيارب قد أحسنت عوداً وبدأة الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة فعذري اقراري بان ليس لى عذر

ومن أشهر أهاجيه قوله فى أشجع السلمى

قل لمن يدعى سليما سفاها لست منها ولا قلامة ظفر
انما أنت من سليم كواو ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

(نوادره ومجونه)

قد نسب الناس الى أبى نواس كثيرا من المجون فى مجلس الرشيد وخاصة نفسه من أهل بيته وجواريه وخدمه والذى رأيناه بعد البحث ان الرجل كان فى نفسه ماجنا يظهر مجونه فى كلامه وشعره وكان لا يتحاشى ذلك فى مجالسه مع أخصائه فنقل الناس من هذه الاحاديث التى كانت تصدر منه فى مجالسهم وحرفوا نسبتها وعزوها له فى مجلس الرشيد ليزيد الخبر غرابة فى نفس السامع (وما آفة الاخبار الا رواتها) ثم زاد الناس فى منادراتهم حكايات أخرى أسندوها اليه لشهرة المجون عنه وسهولة تصديقها من مثله وغفل السامعون له عن مرتبة هرون فى التقوى والصلاح والجد ونسوا انه حبسه مرارا على الهفوات التى كانت تبلغه عنه فى غير مجلسه وكل ما رأيته من ذلك مقطوع السند من الراوي الاخير

على ان أبا نواس كان متصلا بكثير من الامراء من آل العباس وغيرهم

فلم أنحصرت نوادره وملحه ومجونه فى الرشيد والسيدة زبيدة وجوارى الخليفة.

نحن نعلم ان هرون كان يفضل أبا العتاهية على غيره من الشعراء حتى أبي نواس ونعلم ان علة ذلك انه كان يقول في الزهد والصلاح وان هرون كان يأنس به أكثر مما يأنس بسواه وانه كان يصلى فى اليوم والليلة مائة ركعة وكان يحج عاماً ويغزو عاماً وكان ينظر فى أمور الرعية جليلها وصغيرها فهل كان مع كل هذا يضيع أوقاته فى مثل هذا اللهو الذي يترفع عنه أوساط الناس وكثير من الدهماء هل كان الذى ربى المأمون على الجد وملأه شغفاً بالعلم وخرجه على مثل هذه الاخلاق يقطع وقته فى المجون واللهو والشراب هذا مما لا تسمح به سنة الوجود ولا يتخيله الا من لا يتخيل صفة الخليفة اذ ذاك

وهذه أشعار أبي نواس المتصلة السند ليس فيها ما يشير الى هزل وخلاعة فى مجالس هرون ولا فى مجلس الامين ونحن نعلم ان الرجل كان يجاهر بما يعمل ويقول ما يريد قوله بلا مبالاة . كل ذلك يدل على وضع الناس لهذه الاحاديث للفكاهة لتقبل طبع أبي نواس لها ولغرابتها اذا كانت فى مجلس خليفة وكلما كان المجلس أهيب كان وقوعها فيه أغرب

(أبو الطيب المتنبي)

أبو الطيب المتنبى هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الشاعر الذى

هز بشعره الشعراء والعلماء والامراء وشغل أرباب الاقلام وألسنة الاندية من أوائل القرن الرابع حتى الآن

ولد بالكوفة فى كندة سنة ثلاث وثلثمائة ثم سافر به أبوه الى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ويسلمه الى المكاتب ويردده فى القبائل وكان يرى فيه كما رأى أصحاب الفراسة من وجوه عصره مخايل النجابة فيزيده ذلك اقبالا على تعليمه وتخريجه وتدريبه على مقارعة الابطال بالسنان والفصحاء بالحجة حتى بلغ من الفصاحة والشجاعة فوق ما كان يطمح اليه أبوه فلم يكد يفرح به حتى عاجلته منيته وترك ولده فى ريعان الشباب ومقتبل حياته الجديدة فتطلعت نفسه الى الملك ودعا قوما من الاحداث الى بيعته فانحازوا اليه وأخذ سواده يكثر فى البادية فتدارك الوالى أمره قبل أن يستفحل وسير اليه من أخذ عليه طرقه فأخذه وسجنه وشرد عنه أصحابه فبقى محبوساً لم يفتكه الا شفاعة شعره فى القصيدة التى يقول فى مطلعها

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود
فهن أسلن دما مقلتى وأحرقن قلبي بنار الصدود

ومنها قوله فى استعطاف الامير

أمالك رقى ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد

دعوتك لما برانى البلى ... وأوهن رجلى ثقل الحديد

ومنها

وكنت من الناس فى محفل ... فها أنا فى محفل من قرود

ولم يزل يقول الاشعار حتى خلى سبيله فرجع الى البادية وفى نفسه حب الولاية والرياسة والخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان فكان يكثر من هذا المعنى فى شعره كقوله

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طولها التثموا مرد

وكقوله

فالموت أعذرنى والصبر أجمل بى ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

وقد كان يتجشم المشاق فى الاسفار النائية لعله تلوح له فرصة لادراك بغيته ولكن الاقدار لم تكن لتؤاتيه ورب ما ضاق العيش فرجع الى الشعر يتكسب به ولم تكن جوائزه عليه شيئا مذكورا وكانت الحاجة تدفعه الى تقبل ما يجىء حتى انه مدح على بن منصور الحاجب بقصيدته التي يقول فيها

حالا متى علم ابن منصور بها ... جاء الزمان الى منها تائبا

فلم يعط الا دينارا واحدا

ولكن فضل أبى الطيب وعلو سفره وأدب سيف الدولة بن حمدان

كل أولئك كان مدعاة الى اصطفاء أبي الطيب في آل حمدان وعمادهم سيف الدولة فدرت عليه النعم وظهرت مكانته في مجالس سيف الدولة ظهور الشمس في رابعة النهار واخمل كل نابه وكسف كل شارق حتى جرؤ أن يقول لسيف الدولة

أجزني اذا أنشدت شعراً فانما   بشعري أتاك المادحون مرددا
فدع كل صوت غير صوتي فانني   أنا الصائح المحكي والآخر الصدا

وقد بلغت مكانته عنده أن ينشده وهو قاعد ولم يكن هذا لاحد غيره وقد اتفق أنه كان ينشده — لكل امرئ من دهره ماتعودا — فقال بعض الحاضرين يكيد له لو أنشدها قائما لاسمع فان أكثر الناس لا يسمعون فقال أبو الطيب أما سمعت أولها فاستحسن الناس منه جوابه وسمو نفسه وقد كان اتصاله بسيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وبقى معه تسع سنين وهو بالمحل الارفع الى أن وقع بين المتنبي وابن خالويه النحوى كلام في مجلس الدولة فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ولم يدفع عنه سيف الدولة فخرج ودمه يسيل على ثيابه فقصد مصر وامتدح كافورا ليغيظ سيف الدولة وتقدم عنده حتى كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق ولكنه لم يقنع بذلك بل طلب الولاية ولكن كفوراً خافه خصوصا اذا ولاه أن يغلبه على أمره فلم يوله فهجاه

وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلثمائة وقد أرسل كافور في طلبه الى جهات شتى فلم يدركه وقصد أبو الطيب بغداد فذمه شعراؤها فقصد عضد الدولة ابن بويه الديلمي بفارس فأجزل صلته وقربه

ومن نوادره لما أنشده القصيدة النونية التي مطلعها — مغاني الشعب طيبا في المغاني — ووصل فيها الى قوله

وألقى الشرق منها في ثيابي   دنانيرا تفر من البنان

قال له عضد الدولة لاقرنها في يديك وفعل

وقد طلب الصاحب بن عباد أن يزوره بأصبهان ولم يكن قد استوزر فأبى عليه ولم يقم له وزنا وقد كانت نفسه ترفعت عن مدح غير الملوك وهذا كان السبب في طعن الصاحب بن عباد فيه خصوصا بعد أن تولى الوزارة وقصده الشعراء فانهم أخذوا يتلقفون له المساوىء كما كان الصاحب نفسه يفعل . وقد كان سبب ذم شعراء بغداد له انه لما قدمها ترفع عن مدح المهلبي الوزير فشق ذلك على المهلبي وأغري به الشعراء حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه . ومنهم ابن الحجاج وابن سكرة والهاشمي وتهاجنوا به وتنادروا عليه ولكنه لعلو نفسه لم يجبهم بل قال حينما سئل عن ذلك انى فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم

أرى المتشاعرين غروا بذمي   ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقولى

واذا أتتك مذمتى من ناقص ٣) فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقد قام عليه أيضا شعراء البصرة خصوصا منهم أبا الحسين بن لنكك وله فيه أهاج قبيحة ولكن أبا الطيب لم يكن يبالى بها لعلو مكانته ومعرفة الناس ان ذاميه لا يريدون بذمهم الا ايذائه حسدا من عند أنفسهم هذا وقد أحب أبو الطيب أن يرجع بلاده فأراد عضد الدولة أن يبعث معه طائفة من الجند لتحفظه من أعاديه وقطاع الطريق فأبت عليه شجاعته أن يتقبل الحرس فخرج مع ابنه محمد وغلامه مفلح وبعض أصحابه يريد بغداد ثم الكوفة فى شعبان سنة ٣٥٤ فعرض له فاتك بن أبى الجهل الأسدى فى عدة من أصحابه فقاتلوا المتنبى ومن معه فما زال يقاتل هو وولده وغلامه حتى قتلوا بالقرب من النعماية فى موضع يقال له الصافية من الجانب الغربى من سواد بغداد وقد عاش احدى وخمسين سنة ١)

أخلاق أبى الطيب — من مناقبه الشجاعة وهى أظهر صفة فيه فانك تراها وقد لازمته فى جميع أطواره وحوادثه وظهرت فى شعره ظهورا بينا فانه يصف الحروب ويهون تهاويلها على النفوس وينعت فضائلها ويسهل أمر الحياة فى طلب الظفر مثل قوله

ولو ان الحياة تبقى لحى ... لعددنا أضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تكون جبانا

وقد زاد في الافتتان في نعت المعامع وساقها على أسلوب النسيب وألفاظ التشبيب كقوله .

أعلى الممالك ما يبنى على الاسل   والطعن عند محبيهن كالقبل

فأما تمدحه بخلال الشجاعة فكثير في شعره ومنه قوله في مفتتح أمره لأبي عبد الله معاذ بن اسماعيل حينما نهاه عن التورط في أمر الدعوة وحيازة الملك لنفسه

أبا عبد الله معاذ اني   خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطلبي واني   أخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه   ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان الي شخصاً   لخضب شعر مفرقه حسامي

ومن أخلاقه بعد الهمة فقد كان على حظوته عند الامراء وتقدمه على الشعراء ونزول الملوك عن أسرتهم لاستماع شعره يرى ان ذلك دون مطلبه وان نفسه العالية تصعد به الى عروش الملوك ويعتقد ان الزمان يحاربه في حقه وانه لا يفتأ يدير حتى يظفر بحد السنان كما قال .

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ   كأنهم من طول ما التثموا مرد .

ثم اذا طاوله زمانه وهو متبسط على الكرامة والنعيم من غير أن يدرك مرامي همته يقول

ماذا رأيت من الدنيا وأعجبه   اني بما أنا باك منه محسود

ويقول لنفسه

ذريني أنل مالا ينال من العلا ... فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

ومن أخلاقه اطمئنان نفسه عند المخاوف وتثبيتها على احتمال الشدائد وانجاد نفسه اياه في المكاره يشير الى كل ذلك قوله

وأشجع منى كل يوم سلامتى ... وما ثبتت الا وفي نفسها أمر

تمرست بالآفات حتي تركتها ... تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

دع النفس تاخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر

وعلى كل حال كان من خلق أبي الطيب الحرص على جلائل الاعمال واستسهال الموت فى سبيل الرفعة بل كان يتخطى ذلك الى استسهال المنية في سبيل الغنى ومن ذلك قوله

اذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعدا ... فقم واطلب الشيء الذى يبتر العمرا

هما خلتان ثروة أو منية ... لعلك أن تبقي بواحدة ذكرا

وانما يريد بطلب الشيء الذى يبتر العمر أن يعمل لمعالى الامور وان أدى ذلك الى بتر العمر حتى ينال ذكرا حسنا وثروة طائلة وكلاهما خير من الموت في ذل الفقر

أما معايبه فمنها الكبر وهو الترفع عن النظراء واستحسان المرء فعل نفسه دون غيره ولهذا كان اذا مدح سيف الدولة أنشده قاعدا ولم يكن ذلك لجميع الشعراء كما أسلفنا بل كان من كبره وغلوه في مقدار نفسه أن يرى

مدحة الكبار من الامراء والرؤساء نعمة منه اليهم وانهم يجزعون لفراقه لما يطوقهم من قلائد الاحسان

ومن هذا قوله فى سيف الدولة بعد أن ارتحل عنه

رحلت فكم باك بأجفان شادن ... على وكم باك بأجفان ضيغم

وما ربة القرط المليح مكانه ... بأجزع من رب الحسام المصمم

وقد كان ممن يضرب بشحه المثل وهو من أحرص الناس على جمع المال وله فى ذلك نوادر شعره — قال ابن الاثير فى المثل السائر (وأما أبو الطيب فخظى فى شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع فى مواقع القتال وأنا أقول فيه قولا لست فيه متأثما ولا متلثما وذلك انه اذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للمسامع مقام أفعالها حتى يظن ان الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه فى ذلك يضل بسالكه ويقوم بعذر تاركه)

وأما أنا فانى لا أجد شعراً يشبه شعر أبى الطيب في مجموع صفاته معنى ولفظاً وأسلوباً وديباجة وان كان له فى كل شيء من ذلك شبيه على حدة فانى وجدت شعره قائماً على دعائم الحكمة وأدلة الفلاسفة وأخيلة المقربين وصناعة المؤلفين وبراعة المبدعين وأساليب المتفننين وتساهل المفترين بمكانتهم الذين لا يبالون أن يجمعوا بين الدرة والحصباء فى سلك ويولعون بالتنقل ولو من الاحسن الى الحسن أو من الجيد الى الردىء فى ألفاظ تدور

بين الأنس والغرابة والخفة والثقل والحضرية والحوشية ونظم قد يهزه التعمل للمعانى الدقيقة فيضطرب حتى تتزحزح كلماته عن مواضعها وتخفى صورة معناه على ناظره فيخبط فى وصفها ويفسح المجال للاحتمال

هذا الى قلة المبالاة بالجرى على المشهور في اللغة لانه كان يتبع رؤبة ورؤبة صاحب غريب فى الالفاظ والاعاريب ومن أجل هذا اختلف النحاة فى تخطئته وتصويبه وانا لنجد فى شعره من المساويء مالو كان فى شعر غيره لجعله مخزاة من المخازي ولكن كثرة الحسنات فيه تذهب بسيئاته فان كثرة الأمثال السائرة فيه والمعانى المبتدعة والحكم البالغة وكسوة القديم ثياب الجديد والتصرف فيه حتى يحسب طريفا كل ذلك قد غطى وجه كثير من المعايب وكاد ينسى المساوى

وقد اعتنى العلماء والادباء بشعره — قال ابن خلكان قال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم وقفت لديوان أبى الطيب على أكثر من أربعين شرحا ماين مطولات ومختصرات وقد قرأ ابن جنى ديوان أبى الطيب عليه وشرحه فى ثلاث مجلدات

وأما من كتب فى شعره فانا لا نكاد نحصي أقلامهم ولكن اشهرهم صاحب الوساطة ابو الحسن على بن عبد العزيز الشهير بالقاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦

وهذا الكتاب خير ما كتب فى بيان درجة المتنبي وتمحيص آراء

خصومه ونقدها نقداً صحيحا على طريقة الانصاف . ومن كتب فيه وأطال ووفى أبو منصور الثعالبي فى الجزء الاول من اليتيمة وصاحب الصبح المتين عن حيثية المتنبي ومن غرر قصائده قصيدته البائية التى أنشده السيف الدولة بعد غزو بني كلاب وايقاعه بالرجال وابقائه على الحريم يستعطفه ويذكره بعفو أبيه عنهم

بغيرك راعيا عبث الذئاب ... وغيرك صارما ثلم الضراب
وتملك أنفس الثقلين طرّاً ... فكيف تحوز أنفسها كلاب
وما تركوك معصية ولكن ... يعاف الورد والموت الشراب
طلبتهم على الامواه حتى ... تخوف أن تفتشه السحاب
فبت لياليا لانوم فيها ... تخب بك المسومة العراب
يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب
وتسأل عنهمو الفلوات حتى ... أجابك بعضها وهم الجواب
فقاتل عن حريمهمو وفروا ... ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهمو سلفى معد ... وانهم العشائر والصحاب
تكفكف عنهمو صم العوالى ... وقد شرقت بظعنهم الشعاب
وأسقطت الاجنة فى الولايا ... وأجهضت الحوائل والسقاب
وعمرو فى ميامنهم عمور ... وكعب فى مياسرهم كعاب

ومنها

وكيف يتم بأسك فى أناس ... نصيبهمو فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم ... فان الرفق بالجانى عقاب
فانهمو عبيدك حيث كانوا ... اذا تدعو لحادثة أجابوا
وعين المخطئين همو وليسو ... باول معشر خطئوا فتابوا
وأنت حياتهم غضبت عليهم ... وهجر حياتهم لهمو عقاب
وما جهلت أياديك البوادى ... ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال ... وكم ~~لبعد~~ بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم ... وحل بغير جارمه العذاب

ومنها

رميتهمو ببحر من حديد ... له فى البر خلفهمو عباب
فمساهم وبسطهمو حرير ... وصبحهم وبسطهمو تراب
ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب
بنو قتلى أبيك بارض نجد ... ومن أبقى وأبقته الحراب
عفا عنهم وأعتقهم صغارا ... وفى أعناق أكثرهم سخاب
وكلكمو أتى مأتى أبيه ... وكل فعال كلكمو عجاب

ومن قصائده المشهورة قصيدته التى مطلعها

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

فاذا هما اجتمعا لنفس حرة   بلغت من العلياء كل مكان

ومنها

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى الى شرف من الانسان

وقصيدته التى مدح بها كافورا ومطلعها

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب   وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

ومنها

وهبت على مقدار كفي زماننا   ونفس على مقدار كفيك تطلب

اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية   فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ومنها

وكل امرىء يولى الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

الشعر من سنة ٦٥٦ الى سنة ١٢٢٠ ه

لما وهى بناء الدولة العربية أخذ الشعر يضمحل منها ويتبعثر أينما بعثرت وكلما تلونت لها الايام تلونت فأخذ المخصصون للشعر يقلون وقلما يجيدون وعزت ملكة الشعر الجيدة فى الشعراء وأحلوا محلها ضروبا من الصناعات اللفظية المتكلفة والافانين المخترعة كتطريز أسماء الممدوحين والتزام حرف واحد فى أول أبيات القصيدة وفى آخرها كما فعل صفى الدين

الحلى في الارتقيات وكانشاء المزدوجات كما فعل قويدر الخبلي والشيخ قاسم ومصطفي أسعد وغيرهما وكانشاء قصيدة عاطلة وأخرى حالية أى معجمة كمافعل الحريرى من متقدمي المخترعين وابن عربشاه من متأخريهم مثل قوله في المعطل

الدالم العلم الامام لدي العلا   العادل الحكم الهمام الاوحد

وكجمعه حروف الهجاء في بيت واحد وهو قوله

خض بحر لفظ حديثه تفش العلا   واجزم لصدقك ناطقا اذ تسند

ومن بدعهم الشنيعة في الشعر الالغاز التي ملئوا بها بطون الدواوين وهي من أردأ الشعر وأعقده وكذلك التواريخ وهي حساب بيت أو نصف بيت بالجمل يوافق عدده عدد السنة التي بنى فيها البيت أو ولد فيها المولود أو أقيم العرس الى غير ذلك ولقد غالى بعضهم فجعل القصيدة كلها تواريخ فجاءت غثة باردة ليس فيها كبير معنى ولا رقيق مبنى ولقد ظهر الفساد في الشعر ظهورا بينا حينما جعله العلماء أوعية للفنون ومخزنا للمسائل النحوية والفقهية ونظموا فيها مصطلحاتهم وتصرفوا فيه تصرفا سيئا ومشوا في صحة لفظه على الوجوه الضعيفة وتوسعوا في الضرورة الى حد لا يطاق كقول اللقاني

فاهل بدر العظيم الشان   فاهل حد فبيعة الرضوان

فانه غير العلم وجعله حدا بعدان كان (أحدا) وغير غيره عبد الرحمن

بابدالرحمن ولم يبال كثيرا منهم باللحن الفاضح : هـذا كلام ابن حجر العسقلانى فى طالعة ديوانه الذي جمله سبعة أنواع فى كل نوع سبعة أشياء وفتحه كما قال بالنبويات ثم الملوكيات ثم الاخوانيات ثم الغزليات ثم الاغراض المختلفة ثم الموشحات ثم المقاطع . فقد جاء فى مطلع قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر ختمه صحيح البخارى فى شهر رمضان سنة ٧٩٨ هـ .

لو أن عزالى لوجهك أسلموا   لرأيت انى فى المحبة أسلم
كيف السبيل لكتم أسرار الهوى   ولسان دمعى بالغرام يترجم
لام العواذل كل صاد للقا   وملامهم عن الخطا لو يعلموا
لا يعلموا أين الهوى لكنهم   لاموا عليه لانهم لم يفهموا

فانظر اليه وقد حذف النون بغير جازم فى الموضعين ولم يبال بذلك ولو سئل فيما أظن لقال ان ذلك جائز بدليل قول الشاعر

أبيت أسرى وتبيت تدلكى   شعرك بالعنبر والمسك الزكى

ولو قال له قائل انهذا ان صح لا يقاس عليه فانه لا يعدم ان يلجأ الى باب الضرورة وهو مفتوح لكل واحد منهم فكيف يسهل على الشعر ان يحمل على ظهره كل هذه المتون وهذه الضروريات ولا ينوء به

على أنه لو وقف به الزمان عند هـذا الحد لرجونا ان يعيش النسايم

منه في ناحية أخري غير نواحي كتب الفقه والتوحيد والقواعد النحوية والصرفية ولكنه دهمه التصرف من ناحية الغزليات والخمريات فتصرف المتصرفة من الشعراء تصرفاً أخلف ديباجته بل أحال لغته .

هذا ديوان محيي الدين ابن العربي لو أحيا الله صاحب القاموس مافهمه على علمه باللغة وهذا ديوان ابن الفارض اذا جرينا في شرحه على كلام من شرحه من الصوفية فانا لانجد معاني ألفاظه مما وضعتها العرب لها ولا أطيل بذكر دواوين الصوفية وخروجهم بالشعر ومعانيه عن مناحي العرب فان أمرهم في ذلك أظهر من أن يذكر .

ومما جاء ضغثا على ابانة البديعيات فانها كادت تزهق بروحه لعدم القصد بها الى المعنى وتوجه نفس القارىء والناظم الى لمح أنواع البديع من جوانب النظم وقد أكثر الشعراء منها وتنافسوا فيها حتي كثرت وهانت ثم هجرت غير مأسوف عليها .

وأما غير هؤلاء من الشعراء فقد أكثروا من المبالغات والخيالات وتوسعوا في باب الغزل الفاحش والتصريح بالمنكر بلا خجل ولا حياء فجنوا بذلك على الادب وحملوا الصالحين على ترك الشعر وصرف الناس عن الاشتغال به حتى كان من ذلك انصراف كثير من أهل القرائح الوقادة عنه . وقد أدركت العلماء في عصرنا وهم يعيبون المشتغل به و يتهمونه بالجهالة ولذلك لم ينبغ في الشعر نابغ منهم

ومن أعاجيب الزمان ان يبقى بعد كل هذا شعراء مجيدون كابن عنين وزير بني غالب والحاجري وابن نباتة المصري والبهاء زهير وان تكون لهم قدرة على الارتجال الجيد كما وقع لابن عنين وقد كان جالسا عند فخر الدين الرازي وهو في درسه نحو ارزم في يوم شديد البرد والثلج واذا بحمامة طائرة يتبعها جارح فسقطت عليه واختفت تحت ثيابه فقال بديهيا في ذلك

يا ابن الكرام المطعمين اذ اشتوا في كل مخمصة وثلج خاشف
من نبأ الورقاء ان محلكم حرم وانك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها فحبوتها ببقائها المستأنف
ولو انها تحبى بمال لانثنت من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمن الزمان لشجوها والموت يلمع من جناحي خاطف
قرم لواه الخوف حتى ظله بازائه يجري بقلب خائف

وسنذكر ترجمة ابن النبيه المصري وصفي الدين الحلي

ابن النبيه المصري

هو كمال الدين علي بن محمد المعروف بابن النبيه الشاعر الناثر كاتب

الملك الاشرف وشاعره

نشأ هـذا الشاعر وتعلم الادب وبرع فى الـكتابة والشعر وما زال يقدمه جده الى أن وصـل الى الملك الاشرف فمدحه بقصائد جمـة ومدح الخلفاء والامراء وكان يتغالى فى مدح الترك ولا يبالى اذا لمح المعنى اللطيف أن يقوله ولو كان لا يلائم عقيدة الموحدين فـكان ذلك مثارا للخوض فيـه من معاصريه . فمن الاول قوله فى طالعه قصيدة يمدح بها الاشرف

الله أكبر ليس الحسـن فى العرب   كم تحت لمة ذا التركى من عجب

فقد كفره بعض الحنفية بهذا البيت لنفيه الحسـن عن العرب مع أن النبي صلى الله عليه وسـلم منهم ولهذا أخذ الناس يروونه كل الحسن بدل ليس الحسن مع أن روايتهم لا تستقيم مع آخر البيت

ورأيي فى هـذا البيت انه ليس فيه كبير معنى ولا عمـل لنفس الشاعر وأن مثل هذا مما يجري على ألسنة الناس وليس فيه معنى شعرى خيالى جميل ثم هو من القذف بالمبالغة بلا مبالاة ولا احتراس ولو فطن ابن النبيه الى أن الجمال من الامور المختلفة باختـلاف الاذواق والعادات وأن ما يكون جميلا عنـد قوم قد يكون قبيحا عنـد آخرين لما رمى بهذه الكلمة على هذه الصورة

ومن الثانى قوله فى طالعه مدح له

رناوانثني كالسيف والصعدة السمرا   فما أكثر القتلى وما أرخص الاسرى

خذوا حذركم من خارجى عذاره فقد جاء زحفا فى كتيبته الخضرا
غلام أراد الله أطفاء فتنة بعارضه فاستؤنفت فتنة أخرى

فان التمليح الذى أراد جره الى الشفاعة بأنه نسب الى الله انه أراد اطفاء الفتنة وصرف الانظار عن الجمال الفاتك فأنبت عارضه لذلك فجاء الامر على غير مايريد الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا

وعندى ان هذا لايصدر الا من رقة فى الدين تكون عند الذين يفرطون فى المجون وذلك مما يترفع عنه المؤمنون والمؤاخذة على هذا أشد من المؤاخذة على الاول ولو كفره بعض الحنفية بهذا لكان لكلامه وجه ظاهر

وقد كان عهدنا بالشعراء السابقين أن يبدءوا قصائدهم بالغزل فى المؤنث ولكنهم فى هذا العهد حولوه صراحة الى المذكر مجاراة لأذواق ممدوحيهم ولقد كان أبو نواس أسبق الى هذا ولكنه لم يكن ليجعل فاتحة قصائده فى مدح الخلفاء والامراء مثل هذه الفاتحة بل كان يقول ذلك فى غزله هو ومجونه لافى الحشد ومنازل الملوك لاستهجان هذا جد الاستهجان فى ذلك الزمان أما كونه مستهينا بأمر الذنوب ميسرا للمعاصى فظاهر فى كثير من شعره مثل قوله فى القصيدة التى مطلعها

يا كرص بوحك أهنأ العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره

واجسر على فرص اللذات محتقرا عظيم ذنبك ان الله غافره
فليس يخذل فى يوم الحساب فتى والناصر ابن رسول الله ناصره

ولقائل أن يقول ان الذى جره الى هذا انما هو الخاص الذى أراده والمبالغة فى مدح الخليفة ولكن لايفوتنا على كل حال انه يأمر باللذات واحتقار الذنوب ويحوّل الناس على شفاعة الخليفة لهم فى الدار الآخرة وما يدريهم لعل الخليفة يحتاج الى شفعاء حتى يزحزحوه قليلا عن النار وقد جرى كثير من الشعراء هذا المجرى وأشهرهم فيه ابن الفارض فى مثل قوله

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا وخل سبيل الناسكين وان جلوا

وقد ساعدهم على ذلك غلبة العقائد الباطنية من رفع التكليف عن قوم وصلوا الى درجة فى طريقهم ولكن ابن الفارض رحمه الله لم يكن منهم وان تسربت عقائدهم الى شعره ولذا كانوا يتأولون كلامه فاذا عز عليهم ذلك قالوا انه قاله فى مقام الشطح وهو معذور فيه لانه مأخوذ غير مكلف

فأما ابن النبيه فلم يكن من هذا القبيل بل كان يصرح بماينافى التأويل ولا يجب أن يحمل كلامه على غير ظاهره كما قال

لافى العذيب ولا فى بارق غزلى بل فى لمى فمه أو ثغره الشنب
ثغر اذا ما الدجى ولى تنفس عن زيج من الراح أوضرب من الضرب

وخلاصة القول انه شاعر رقيق اللفظ رقيق الدين متين العبارة بديع الصنعة لا يتكلف حتى يسخف ولا يعتن حتى يستغلق يجرى على طريقة من

سبقه فى الافتتاح بالغزل والتخلص الى المدح وقلما يبدأ بغزل المؤنث . لم أر له ذلك الا في قصيدتين وما عداهما غزل فى مذكر وهو من أبرع الناس مخالص فمن ذلك قوله فى صفة الخمر وفيه المخلص

حمراء تفعـل بالألباب مافعلت   سيوف شاة أرمن فى عسكر لجب

وقوله

ياطالب الرزق ان سدت مذاهبه   قل يا أبا الفتح ياموسي وقد فتحت

وقوله

بتنا وقدلف العناق جسومنا   فى بردتين تـكرم وتعفف

حتى بدا فاق الصباح بجحفل   أعلامه رمك المليك الاشرف

ملك بياض يمينه لسميه   موسي ومنظره البديع ليوسف

والحق ان الرجـل شاعر متفنن قليـل السقط متقارب الشعر وهو الى شعر الكتاب أقرب منـه الى شـعر الشعراء لان لشعر الـكتاب مسحه من السهولة والوضوح وتخير الـكلمات الدائرة والمعـانى السائرة مالا يكاد يتفق كله لشعر الشعراء ولنقتطف منه شيئا يدل على ماوصفنا . فمن شـعره المشهور فى رثاء على بن الخليفة الناصر احمد أمير المؤمنين وهو من جيدكلامه وله فيه خيال بديع

الناس للموت كخيل الطراد   فالسابق السابق منـه الجواد

والله لايدعو الى داره   الا من استصلح من ذى العباد

والدهر نقاد على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد أن ... يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الارواح الا اذا ... سرى الى الاجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ... ودست اعناق السيوف الحداد

الى أن يقول

دفنت فى الترب ولو أنصفوا ... ما كنت الا فى صميم الفؤاد

الى أن يقول

خليفة الله اصطبر واحتسب ... فما وهى البيت وأنت العماد
أنت سماء أطلعت زهرها ... لا ينقص الآفل منها عداد
وأنت لج البحر ماضره ... لو سال من بعض نواديه واد

ومن غزله المرقص قوله في طالع قصيدة يمدح فيها موسى الاشرف

من سحر عينيك الامان الامان ... قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان
أهيف عبل الردف حلو اللمى ... مر الجفا قاس رطيب البنان
يزداد اذ اشكو له قسوة ... ولو شكوت الحب للصخر لان
ساق سها رضوان عن حفظه ... ففر من جملة حور الجنان

الى أن يقول

بخده أو طرفه أو جنى ... لماه سكري لا بنت الدنان

يالائمي دعني فاني فتى	ماترك الحب بجسمي مكان
لاتسأل العاشق عن حاله	فدمعه عن سره ترجمان
لولا دموعي والضنا لم أبح	قد ينطق المرء بغير اللسان
أعزني موبي ولولا هوى	معذبي ماذقت طعم الهوان

وقال في التذكر من مطلع قصيدة

يابارقا أذكر الحشا شجنه	منزلنا بالعقيق من سكنه ؟
أمرتع اللهو يانع خضر	أم غير الدهر بعد نادمنه
يابرق هاجسمي يذوب ضنى	ومهجتي بالعقيق مرتهنة
أبرق أشكو عساك تخبرهم	وكل من هام يشتكي شجنه
بلغ حديث الحمى وساكنه	لمغرم انحل الهوى بدنه
اسمعه ذكر الحبيب مقتربا	فقد أصمت عذاله أذنه
هم آنسوه لكن بوحشتهم	ونفروا عن جفونه وسنه
أشتق المحبين عادم وطرا	فكيف ان كان عادما وطنه

وقال يمدح القاضي الفاضل مقتبسا من سورة المزمل

قمت ليل الصدود الا قليلا	ثم رتلت ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل	وهجرت الرقاد هجرا جميلا
مسمعي كل عن كلام عذول	حينما ألقى عليه قولا ثقيلا
وفؤادي قد كان بين ضلوعي	أخذته الاحباب أخذا وبيلا

قل لراقى الجفون ان لعينى | فى بحار الدموع سبحا طويلا
ماس عجبا كانه مارأى غصنا | رطيبا ولا كثيبا مهيلا
وجنى عن محبه كأس ثغر | حين أضحى مزاجها زنجبيلا
بان عني فصحت فى أثر العيس | ارحمونى ومهلوهم قليلا
أنا عبد للفاضل بن على | قد تبتلت بالثنا تبديلا
لاتسمه وعدا بغير نوال | انه كان وعده مفعولا
واذا كان خصمك الدهر والحكم | الى الله فاتخذه وكيلا
راع أعداءه بصغر اليراعا | ت فانسى صريرهن الصليلا
ان مدحى له أشد وطاء | وقريضى أقوى وأقوم قيلا
فاستمع لفظه ولذ بحماه | تلق قولا جزلا ونيلا جزيلا
جل عن سائر الخلائق فضلا | فاخترعنا فى مدحه التنزيلا

هذا وله موشحات ودوبيت ورجز وهو ليس فيها من كبار المحسنين وأما خمرياته فكثيرة وهو فيها حسن فى جملتها الا ان معانيه مأخوذة من المتقدمين وله فيها التصرف الحسن وربما جاء بشىء نادر من المعني البديع وقد سكن آخر حياته نصيبين وتوفى بها فى ٢١ جمادي الاولى سنة ٦١٩ هـ

(صفي الدين الحلى)

هو عبد العزيز بن سرايا المعروف بصفي الدين الحلى الطائى الشاعر

المبدع المتفنن ولد بالعراق سنة ٦٧٧ هـ في بلد يقال له الحلة (حلة بابل) وكان أخواله من الصدور العظام منهم جلال الدين بن محاسن وصفي الدين ابن محاسن وكان بيت أبيه لا يقل عن بيت أخواله شرفا فنشأ صفي الدين فا كها في النعمة متبسطا على العز لهجا بالشعر حفظا ونظما فخورا بشجاعته وحسبه فجال في ميدانين من الشعر والحرب فجلى فيهما على الاقران وطار صيته بين الأدباء والشجعان وأنف أن يمدح الأكابر لصلاتهم وقصر مدحه على آله ووصف حروبهم ومآثرهم ولم يضم الى ذلك الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم لم يلبث أن شبت في العراق فتن وحروب أدارت رحاها على قومه فأبلى فيها بلاء حسنا ووصفها في أشعاره وصفا دقيقا وما زال يجالد ويحرض بسيفه ولسانه حتى صار أصحابه فريقا في الآسار وفريقا في أنياب المنون فلبس جلباب الليل ومضى على وجهه ليدرك ثأر قومه الى أن نزل على الملك المنصور أحد ملوك بني أرتق بماردين وديار بكر فحل منه محلا كريما وصان المنصور دمه ووجهه فقيدته هناك نعم المنصور والصالح فابتدع في مدحهما مدائح من الشعر لم يسبق اليها وقصر مدائحه عليهما. فمن ذلك الأرتقيات التي سماها درر النحور في مدح الملك المنصور وجعلها ديوانا خاصا وهي تسع وعشرون قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتا وكل واحدة على حرف من التسعة والعشرين وقد التزم أن يكون الحرف أول البيت وآخره وكلها غزل رقيق ومديح جيد. ثم سافر بعد الى الحجاز فمصر وكان

سلطانها الملك الناصر محمد بن قلاوون فأكرم وفادته ونال من الحظوة فوق مايرتقب فقال فيه وفي وصف مجالسه الخاصة شيئا كثيرا وتفنن في الجناس ولزوم مالا يلزم والتخميس والتضمين والموشحات والمزدوجات والمعارضات حتى أجمع أهل الأقطار على انه واحد العصر بلامنازع وقد جمع ديوانه وجمله باسم ملك مصر وأهداه اليه. هذا وقد كان يحسن الى وطنه ويزيده حنينا كتب من بقي من أهله اليه فارتحل بالكرامة الى الشام ثم الى بلده وبقي يراسل الملوك والعظماء حتى آخر حياته سنة ٧٥٠ ومن شعره فى صباه يفتخر بقومه وأخذهم بثأر خاله من آل أبي الفضل

سلي الرماح العوالي عن معالينا　　واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي العرب والاتراك مافعلت　　بأرض قبر عبيد الله أيدينا

وهي طويلة . وقال فى تلك الواقعة يصف حاله

لمن الشوازب كالنعام الجفل　　كسيت جلالا من غبار القسطل
يبرزن في حلل العجاج عرائبا　　يحملن كل مدرع ومسربل
شبه العرائس تجتلي فكأنها　　فى الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها　　فعل الصوالج فى كرات الجندل
فتظل ترقم فى الصخور أهلة　　بشبا حوافرها وان لم تنعل
يحملن من آل القريض فوارسا　　كالاسد فى أجم الرماح الذبل
تنثال حول مدرع بجنانه　　فكأنه من بأسه فى معقل

وله البديعيات المشهورة التى أولها

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عرب بذى سلم

وهى مائة وخمسة وأربعون بيتا تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع وقد عارض الحريرى وهو فى الثالثة والعشرين من عمره بمقامه كلها من جنس (زينت زينب بقد يقد) وهى لا تكاد تفهم الا بشق الانفس ومن ارتقياته قوله فى طالعة أولاها

أبت الوصال مخافة الرقباء وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورتها النفوس وطالما ضنت بها فقضت على الاحياء
أمت بليل والنجوم كأنها درر بباطن خيمة زرقاء
أمست تعاطينى المدام وبيننا عتب غنيت به عن الصهباء
أبكى وأشكو ما لقيت فتلتهى عن در ألفاظى بدر بكائى
آبت الى جسدى لتنظر ما انتهت من بعدها فيه يد البرحاء
ألفت به وقع الصفاح فراعها جزعا وما نظرت جراح حشائى
أمصيبة منا بنبل لحاظها ما أخطأته أسنة الاعداء

وقال يحرض قومه على المغول من قصيدة طويلة هذا صدرها

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب قضى ولم يقض من ادراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل الا بعد مؤلمة ولا يتم المنى الا لمن صبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

وأعرز الناس عقلا من اذا نظرت عيناه أمرا غدا بالغير معتبرا
فقد يقال عثار الرجل ان عثرت ولا يقال عثار الرأى ان عثرا

وقال يمدح سلطان مصر ابن قلاوون عند فتح الخليج ويصف ماحوله بقصيدة منها

خلع الربيع على غصون البان حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت كفل الكثيب ذوائب الاغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الاشكال والالوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع أو أزرق صاف وأحمر قان

الشعر والشعراء

لم تكن للشعر سوق رائجة فى عهد محمد على الى عهد اسماعيل لقلة اقبال الامراء عليه وتسلط اللغة التركية فى المجالس العالية وعدم فهم الحكام اللغة العربية العامة فضلا عن آدابها — ولهذا كان الشعر يدور بين فئة قليلة لا تكاد تتعدى الذين ظنوه وسيلة الى الرقي قياسا على الازمان الماضية فأخطئوا القياس أو الذين يحبون الأدب استظرافا له والذين اتخذوه ملهاة كما تتلهى الناس اليوم بالاقاصيص وقد انصرف عنه أكثر العلماء والصلاح وأرباب الدولة أما الاولون فعدوه من اللهو وذموا من يشتغل به وحسبوه عائقا عن العلم وأما الآخرون فلعدم حاجتهم اليه لان التقدم فى أعمال الحكومة باللسان التركى وأما الصلاح فلاعتقادهم أنه من وساوس الشيطان بل كانت اللغة العربية مضطهدة فى عهد عباس الأول الى حد أن من تكلم

بها من طلبة المدارس الحربية توضع فى فيه العقلة التى توضع فى فم الحمار حينما يقعص ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن العزيز أثناء فسحته كما حدث بذلك الثقات الكثيرون ولذلك لم ينبغ فى تلك العصور نابغ فى الشعر

فلما جاء عهد اسماعيل وامتدت آماله فى الفتح ورأى الذين هم عونه على مايريد انما هم العرب أخذ يقربهم ويقرب أدباءهم ويتقبل مدائحهم ويجيزهم عليها وفتح المدارس وعلم فيها اللغة العربية ونشط طالبيها ولهذا سارع الناس الى العلم والأدب وتفتحت لهم فيه قرائح لم تكن من قبل فظهر صفوت والسيد على أبو النصر والسيد على الليثى ومحمود باشا سامى البارودى ثم كثروا فى عهد توفيق وعباس الثانى وبرعوا حتى صار كثير منهم يضاهى المتقدمين متانة وصحة فكان منهم شوقي وحافظ واسماعيل صبرى باشا وأحمد محرم وعدد كثير لا ينفسح وقتنا لسرد أسمائهم — وقد انتقل الشعر بالبارودى نقلة يغبطه عليها كثير من المتقدمين فقد نسج له ديباجة بديعة مثل قطرة العربى السليقى فى مدنية العصر الحاضر وحمل عشاق الأدب على طريقته فجروا فيها شوطا بعيدا

أما أشهر من كان فى زمن أفول الشعر من عهد محمد على فالشيخ الخشاب والشيخ العطار وقد كانا صديقين يستجيد كل منهما كلام صاحبه

السيد على الليثي

هو الأديب الظريف الذى جمع بين الفكاهة والجلال ولد ببولاق وتوفي أبوه وهو صغير فانتقلت به أمه الى جهة الامام الليث بن سعد وهناك

بالليثى وكان كثيرا مايجذب فاعتقده كثير من الناس وقد ذاع علمه وفضله وعرفه عباس الاول ورتب له المرتبات فلما ولى اسماعيل وكان يعرف ظرف الاستاذ ومكانته العلمية والادبية أدناه منه حتى كان سميره فى خلوته وجلوته وقد سافر معه الى الاستانة فكان محل الكرامة والاجلال ثم سافر مع حسين باشا البرنس الى أوربا وزار فينا وغيرها وخطب فى مدرسة اللغات التركية خطبة غراء وأنشد فيها قصيدة فيحاء ولم يزل محترما معظما عند اسماعيل باشا الى أن جاء توفيق فنال من الحظوة عنده مانا له على عهد أبيه ولما حدثت الفتنة كان الاستاذ وسطا يرجع اليه المختلفون ويتلاقي عنده المتنازعون فلم تنحط مكانته عند الخديوي ولم تسقط منزلته عند الثائرين ومع ما كان فيه الخديوى من شدة الغضب والنزوع الى الانتقام من الثائرين كان أول قول قاله الاستاذ له أن نصحه بالعفو ثم أنشأ القصيدة المشهورة التى مطلعها

كل شىء لضده يتحول ... فالزم الصبر اذ عليه المعول

فنطق الاستاذ حيث كان غاية الخير وافضل عند غيره أن يسكت وصب الماء على نيران الغضب المتقدة فأطفأها — وقد بقى فى عهد عباس على ماكان فى أيام أبيه قبلة الادباء ومحط رحال الفضلاء ذوى العلم والجاه الى أن جاء داعى ربه سنة ١٣١٣ هـ

(شعره وآدابه ومحاضراته)

اذا لم يكن شاعرا مفلقا فانه كان رقيقا فكها ساحرا فى محاضراته وعلمه يقول مايجمل فى عين زمانه ويحلو فى ذوق معاصريه وقد كان حاضر

ولا يترفع عنه وقوروالقد كان شعره يعلو بعلوه ويظرف بظرفه ويسيره في الناس ذكره كما قال علي بن الجهم

وما أنا ممن سار بالشعرذكره ولكن أشعاري يسيرها ذكري

فمن ذلك أنه قال قصيدته النونية في حلوان أيام عناية توفيق باشا بها وكان مطلعها

ترعى الظباء وترعى الاسد في آن نبت الخزامى معاً في سفح حلوان

فلم يبق نادر ولا سمر ولا فرد ولا جماعة ولا سوقة ولا ملك في مصر ممن بلغهم شعره الا وهو يترنم بهذا المطلع — وقال يصف وردة أهداها اليه سلطان زنجبار وسأله وصفها

أهدي ابن أحمد وردة لي قائلا صفها فانك واحد العشاق

فأجبته هذي خدود نواعم قد أتقنتها صنعة الخلاق

ان لم يكن في زنجبار مثلها فيها النهى ومحاسن الاخلاق

(محمود سامي باشا البارودي)

هو محمود سامي ابن حسن حسني بك البارودي ينتهي نسبه الى نوروز الاتابكي الملكي الاشرفي والبارودي نسبة الى ايتاي البارود وكان أحد أجداده ملتزما لها فنسب اليها

ولد في رجب سنة ١٢٥٥ للهجرة ولما كان في السابعة من عمره توفي والده فلما بلغ العشرين رثاه بقوله

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي

مات الذي ترهب الاقران صولته ويتقي بأسه الضرغامة العادي

فان أكن عشت فرداً بين آصرتى　　فها أنا اليوم فرد بين أندادى

وكان فى شبيبته ميالا الى الادب والشعر فاشتغل بآداب اللغة العربية وفنونها فأحسن منها شيئاً كثيراً — قال أستاذه الشيخ حسين المرصفى فى الوسيلة الادبية عنه

لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية غير انه لما بلغ سن التعقل وجد من نفسه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ثم استقل بقراءة دواوين مشهورى الشعراء حتى حفظ الكثير منها واستثبت جميع معانيها ثم جاء من صنعته بالشعر اللائق بالامراء ولشعر الامراء كأبى نواس والشريف الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء

وكان يجيد التركية والفارسية ودخل المدارس الحربيـة فى عهد عباس الاول وخرج منها فى عهد سعيد وتقلب فى المناصب الادارية والحربيـة فى عهد اسماعيـل الى أن عين ناظراً للحربيـة في عهد توفيق ثم استقال منها لاسباب ترتبط بالثورة العرابيـة — ولما حوكم رجال الثورة حكم عليـه بالنفي الى جزيرة سيلان فقضى هنالك سبعة عشر عاما تعـلم فيها الانجليزية وعرب كتباً كثيرة ونظم قصائد عـدة كان منها ميمينه المسماة كشف الغمة فى مدح سيد الامة يعارض بها البوصيري ومما قال فيها يتشوق الى بلاد الحجاز

ادعو الى الدار بالسقيا وبى ظمأ　　أحق بالرى لـكننى أخو كرم

منازل لهواها بين جانحتى　　وديعـة سرها لم يتصل بفم

ولة من قصيدة قالها فى شكوي الزمان فى جزيرة سيلان

محا البين ما أبقت عيون المها منى ... فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عناء ويأس واشتياق وغربة ... ألا شدما ألقاه في الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بها ... فؤاد أضلته عيون المها عني
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتني كدت أقضي من الحزن
فياقلب صبراً ان جزعت فربما ... جرت سنحاً طير الحوادث باليمن
فقد تورق الاغصان بعد ذبولها ... ويبدو ضياء البدر فى ظلمة الوهن

وفى عام سنة ١٣١٧ هـ سبقت اليه البشارة بالعفو عنه فرجع الى مصر ولما أطل على ربوعها ملك فؤاده السرور فقال

أبابل رأى العين أم هــذه مصر ... فانى أرى فيها عيونا هى السحر
نواعس أيقظن الهوى بلواحظ ... تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسي أبطل السحر مدة ... فذلك عصر المعجزات وذا عصر

ومر بعد ذلك بقصر الجزيرة فتذكر أيام اسماعيل فقال قصيدة مطلعها

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع ... هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى احدا ... ينأي به الخوف أو يدنو به الطمع
كانت منازل أملاك اذا صدعوا ... بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
زالت فما زالت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

وكان كثير المعارضة للمتقدمين من الشعراء كالنابغة وأبى نواس وأبى فراس وغيرهم فمن ذلك أنه عارض أبا نواس فى قصيدته التى مطلعها

اجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور مايرجى لديك عسير

بقصيدته التى مطلعها

تلاهيت ألا مايجن ضمير ... وداريت ألا ماينم زفير

وهل يستطيع المرء كتمان سره وفى الصدر منه بارح وسعير
فياقاتل الله الهوى ما أمره على المرء اذ يخلو به فيغير
تلين اليه النفس وهى أبية ويجزع منه القلب وهو صبور

ومنها يفتخر

اذا ملئت كف الدهر من غلواته وان قلت غصت بالقلوب صدور
ولى شيمة تأبى الدنايا وعزمة ترد لهام الجيش وهو يمور
اذا سرت فالارض التى نحن فوقها مراد لمهرى والمعاقل دور
فلا عجب اذا لم يصرنى منزل فليس لعقبان الهواء وكور

ومن قوله وهو في جزيرة أقريطش يصف حاله ويتشوق الى مصر

آخذ الكرى بمعاقد الاجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربى بجران
لاتستبين العين من ظلمائه الا اشتعال أسنة المران
تسرى به ما بين لجة فتنة تسمو غواربها على الطوفان

الى أن قال

وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران
فاذا الجبال أسنة واذا الوها د أعنة والماء أحمرقان
فزعت فرجعت الحنين وانما تحنانها شجن من الاشجان

الى أن قال

نقموا على وقد فتكت شجاعتي ان الشجاعة حلية الفتيان
فلئن رجعت وسوف ارجع واثقا بالله أعلمت الزمان مكانى

وتوفى يوم الاثنين لخمس خلون من شوال سنة ١٣٢٢هـ فشيعت جنازته باحتفال عظيم رحمه الله رحمة واسعة ومن آثاره الادبية مختاراته وديوانه


Bibliotheca Alexandrina
04432168